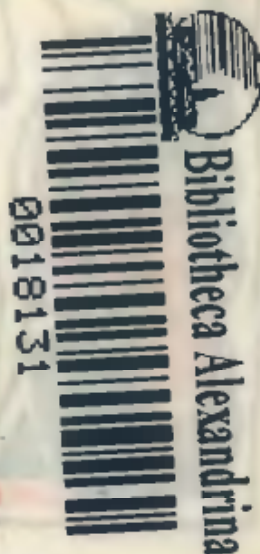


الف ليلة وليلة

حسين جزمير محمد أحمد براف

أمين أحمد العطار

٨



الف ليلة وليلة

الجزء الثامن

أبو الحسن و جاريته تودد

كتبه

حسين جوهير
محمد أحمد برافق
أمين أحمد العطار

الطبعة الثانية



دار المغارة

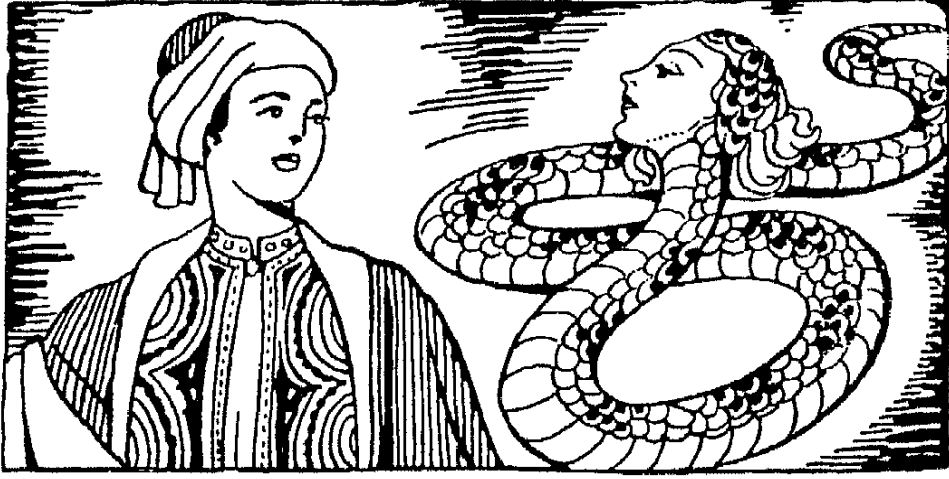
رسوم: الفنانة النمساوية ستيللا يونكرز

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الجزء الثامن

صفحة

- حاسب ٥
 - على نور الدين ومريم الزنارية ٣٥
 - كيد النساء وكيد الرجال ٩٣
 - أبو الحسن وجاريته تودد ١٥١
-



حاسب

(١)

الحكيم دانيالُ ذاع صيته ، وكثر تلاميذه ، واشتهر أمره ؛ وكان
حكماؤه زمانه يحضرون درسه ، ويستمعون له ، ويعوّلون عليه .

لم يرزق هذا الحكيم ولدا ، وكان دائماً مشغول البال كثير التفكير ،
ويتمنى أن يرزقه الله ولداً يرث علمه وحكمته من بعده ؛ وكان كثير الدعاء
لله أن يرزقه ولداً يخلفه من بعده ، فاستجاب الله دعاءه وحملت زوجته .

ولأمر من الأمور خرج في سفر ؛ فركب البحر ، ومعه كتبه ، وبعد
أن سار به المركب بعيداً طغت عليه الأمواج ، وصارت تتقاذفه من مكان

إلى مكان ، حتى اصطدم في صخرة فحطمته وغرق ، وغرقت معه كتبُ
الحكيم دانيال ، ولم ينج منها إلا خمسُ ورقاتٍ كانت في جيبه .
سبح الحكيمُ دانيال في الماء حتَّى وجد لوحاً من ألواح المركب ،
فأمسك به ، وجلسَ عليه ؛ وصار الموج يدفعه إلى هنا وهناك حتى انتهى به
إلى الشاطئ ، فحمد الله على السلامة وعادَ إلى بيته .

وبعد قليلٍ جاء بصندوقٍ من الخشب المتين ، وصنع له قفلاً ، ووضع
فيه الأوراق الخمس وقال لزوجته : اعلمي أنه قد قربت وفاتي وأنت
حامل ، وربما تلدين بعد موتى صبيّاً ، فإذا ولدته فسميه حاسباً كريم اليدين ،
وربّه أحسن تربية ؛ فإذا كبر وقال لك : ما خلفَ لي أبي من الميراث ؟
فاقتحي هذا الصندوق ، وأخرجي الورقات الخمس التي وضعتها فيه ، وأعطيه
إياها ، فإنه إذا قرأها وفهم معناها فسيصير أعلمَ أهل زمانه .
ولم تمض إلا أيام قليلة حتى مرضَ الحكيم دانيالُ ، واشتدت عليه
العلة ، فمات : فبكاه أهله وأصدقاؤه وتلاميذه .

(٢)

أتمت زوجة الحكيم دانيال أشهرَ حملها ، ثم وضعت مولوداً مليحاً ،
وسمته حاسباً كريم اليدين ، كما أوصاها أبوه .
وبعد أيام أحضرت المرأةُ المنجمين ، ليحسبوا طالع ابنها ، فلما حسبوه
قالوا لها :

أيتها السيدة؛ إن مولودك هذا سيطول عمره، ويعيش أياماً كثيرة؛ وستصادفه في أول حياته شدائدٌ وأهوالٌ، سينجيه الله منها، ثم يؤتیه بعد ذلك علمَ الحكمة، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً.

أرضعت الأم ابنها حولين كاملين، وبعد أن أتمت رضاعه فطمته، ثم تعهدته حتى بلغ خمس سنين، وأرسلته إلى صانع ليعلمه صنعةً يكسب منها رزقه إذا كبر، فلم ينجح، وكان كلما أرسلته إلى جهة ليتعلم فيها يرجع إليها خائباً؛ فتبكي، وتندب حظها، وتشكو إلى الناس همها.

فلما كبر اقترح عليها الناس أن تزوجه، لعله يحمل ثم زوجته، ويتخذ له صنعةً يكسب منها رزقه ورزقها؛ فأعجبت أمه هذه الفكرة، وخطبت له بنتاً، وزوجته بها؛ ومع ذلك فإنه لم يتغير، ولم يحاول أن يعمل عملاً يتكسب منه شيئاً.

وكان لهم جيران حطابون، مطلعون على حالهم؛ فأتوا إلى أمه وقالوا لها: اشترى لابنك حماراً وحبلًا وفأساً، وأمره أن يخرج معنا إلى الجبل، فنحطب نحن وإياه، وإذا عدنا إلى المدينة وبعنا الحطب تقسم ثمنه بيننا وبينكم.

حينما سمعت أمه ذلك الكلام من الخطابين، فرحت فرحاً شديداً، وخرجت إلى السوق، واشترت لابنها حماراً وحبلًا وفأساً، ثم أخذته وتوجهت به إليهم، وسلمتهم ابنها والحمار والفأس والحبل، وأوصتهم به خيراً؛ فقالوا لها:

لا تَحْمِلِي هَـذَا الْوَلَدَ ، وَاللّهُ يَرْزُقُنَا وَيَايَاهُ بِرُكَّةٍ رُوحِ أَيْيِهِ .
 خَرَجَ الْخَطَّابُونَ وَمَعَهُمْ حَاسِبٌ كَرِيمٌ الْيَدِينَ إِلَى الْجَبَلِ وَجَمَعُوا
 الْخَطَبَ ، وَحَمَلُوا حَمِيرَهُمْ وَحِمَارَهُ ، وَعَادُوا إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَبَاعُوا الْخَطَبَ ،
 وَاقْتَسَمُوا ثَمَنَهُ ، وَأَنْفَقَ مِنْهُ كَرِيمُ الْيَدِينَ عَلَى نَفْسِهِ وَأُمِّهِ وَزَوْجَتِهِ وَحِمَارِهِ .
 ظَلَّ كَرِيمُ الْيَدِينَ وَزَمَلَاؤُهُ الْخَطَّابُونَ يَخْرُجُونَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى الْجَبَلِ
 يَحْتَضِبُونَ ، ثُمَّ يَعُودُونَ آخِرَ النَّهَارِ ، فَيَدْعُونَ مَا جَمَعُوا مِنَ الْخَطَبِ ، ثُمَّ
 يَقْتَسِمُونَ الثَّمَنَ : وَمَضَى عَلَيْهِمْ مَدَّةٌ طَوِيلَةٌ مِنَ الزَّمَانِ وَهُمْ عَلَى
 تِلْكَ الْحَالِ .

وَذَاتَ يَوْمٍ كَانُوا مَشْغُولِينَ بِجَمْعِ الْخَطَبِ ، فَانْتَشَرَ السَّحَابُ فِي السَّمَاءِ ،
 ثُمَّ لَمَعَ الْبَرْقُ ، وَرَعَدَ الرَّعْدُ ، وَأَظْلَمَتِ الدُّنْيَا ، وَهَطَلَ مَطَرٌ غَزِيرٌ ؛ فَبَحَثُوا
 عَنْ مَكَانٍ يَلْجَأُونَ إِلَيْهِ ، وَيَعَصِمُهُم مِنَ الْمَطَرِ ؛ وَظَلُّوا يَبْحَثُونَ هُنَا وَهَنَكَ ،
 حَتَّى رَأَوْا مَغَارَةً عَظِيمَةً ، فَأَسْرَعُوا إِلَيْهَا ، وَدَخَلُوا فِيهَا ؛ وَكَانَتِ الْمَغَارَةُ مِنْ
 الدَّخْلِ فَسِيحَةً ، فَأَخَذَ كَرِيمُ الْيَدِينَ يَتَمَشَّى فِيهَا ، حَتَّى وَجَدَ حَجَرًا جَلَسَ
 عَلَيْهِ ؛ وَأَخَذَ يَلْعَبُ بِفَأْسِهِ ، وَيَضْرِبُ بِهَا الْأَرْضَ مِنْ حَوْلِهِ ، فَدَلَّهُ حَسُّ
 الْأَرْضِ عَلَى أَنَّهَا خَالِيَةٌ مِنْ تَحْتِ الْفَأْسِ ، فَعَرَفَ أَنَّ فِي هَذَا الْمَكَانِ فَجْوَةً
 مَغْطَاةً بِحَجَرٍ ، فَأَخَذَ يَحْفَرُ حَتَّى رَأَى بَلَاطَةً مَدَوَّرَةً فِي وَسْطِهَا حَلَقَةٌ .

تَأَكَّدَ كَرِيمُ الْيَدِينَ أَنَّ تَحْتَ هَذَا الْحَجَرِ شَيْئًا ؛ فَفَرِحَ ، وَنَادَى
 زَمَلَاءَهُ الْخَطَّابِينَ ، فَخَضَرُوا إِلَيْهِ مُسْرِعِينَ ؛ فَلَمَّا رَأَوْا تِلْكَ الْبَلَاطَةَ سَارَعُوا
 إِلَيْهَا ، وَتَعَاوَنُوا عَلَى خَلْعِهَا مِنْ مَكَانِهَا ، فَخَلَعُوهَا ، ثُمَّ نَظَرُوا تَحْتَهَا فَوَجَدُوا



بابًا ، ففتحوا الباب ، فأوا تحتَهُ جُبًا مملوءًا عسلًا شَهْدًا .

نظر الخطَّابون بعضهم إلى بعضٍ ، وفرحوا بهذا الرِّزْق الذي ساقَهُ اللهُ إليهم على يَدَيِّ كريمِ اليدين ، واتفقوا على أن يعودُوا إلى المدينة ، لُبْحُضروا أوعيةً يعبئون فيها العسلَ ، وينقلونه إلى المدينة ويبيعونه بمالٍ كثيرٍ يقتسمونه . وخشية أن يعثر أحدٌ غيرُهم على هذا الجبِّ ، رأوا أن يتخلف بعضهم عند العسل لحراسته ، ويروح الباقون إلى المدينة لإحضار الأوعية ؛ فقال كريمُ اليدين :

أنا أقعدُ هنا ، وأحرسُ العسلَ حتى تروحوا وتأتوا بالأوعية .

انقطعَ المطرُ ، وصحا الجوُّ ؛ فخرجَ الخطَّابون إلى المدينة ، وتركوا كريمُ اليدين على باب المغارة يحرسُ العسل .

وعاد الخطَّابون بالأوعية إلى كريمِ اليدين ، وعبثوها عسلا ، ووضعوها على حميرهم ، ورجعوا إلى المدينة ، وباعوا العسلَ ؛ وكانوا يخرجون كلَّ يومٍ إلى الجبِّ بأوعيتهم ، ويملئونها عسلا ، ثم يعودون إلى المدينة ، ويبيعون العسلَ ، ويبيئون فيها ؛ ثم يعودون في صباح اليوم الثاني إلى الجبِّ ، ويحملون معهم لحارس الجبِّ ما يكفيه من طعامٍ وشرابٍ . وذات يومٍ قال بعضُ الخطَّابين لبعضٍ :

إن الذي أتى جِبَّ العسل كريمُ اليدين وسيعود إلى المدينة قريبًا أو بعيدًا ، ويدَّعي أنه صاحبُ الجبِّ وأنه صاحبُ العسل ، فهو أحقُّ بـشِمنه منا ، ويكتفى بأن ينزلَ لنا عن أجرِ حمله إلى المدينة ، ويبيعه للناس ،

ويأخذ هوَ الباقي ، ولا مخلصَ لنا من ذلك إلا أن تُنزلَه في الجبِّ ليعبِّيَ لنا
الأوعية ، ثم تتركه فيه ، فلا يجدُ من يخرجُه ، فيموت ، ولا يدري أحدٌ .
اتفق الخطّابون على هذا الأمرِ ، ثم ساروا إلى الجبِّ وهم مصمّمون
على تنفيذه ، فلما وصلوا إليه قالوا له :

يا كريمَ اليدين ؛ انزلْ إلى الجبِّ ، وعبِّئْ لنا العسلَ الذي بقيَ فيه ؛
فسمع كلامهم ونزل في الجبِّ وعبأ العسل الذي بقي فيه ، واستخرجوا
الأوعيةَ بالحبال كما كانوا يفعلون ؛ فلما انتهى قال لهم :

اسحبوني فما بقي في الجبِّ شيء .

فلم يرُدَّ عليه أحدٌ منهم ، وحملوا حميرهم ، وعادوا إلى المدينة ، وتركوه
في الجبِّ وحده يبكي ويستغيث .

أما الخطّابون فإنهم عادوا إلى المدينة وباعوا العسل ، وتوجّهوا إلى
أمّ حاسب كريمَ اليدين وهم ييكون ، وقالوا لها :

عزّاؤنا لك في ابنك !

فجزعت أشدَّ الجزع ، وقالت لهم :

ما سبب موته ؟ ! قالوا : كنا فوق الجبل ، فأمرت السماء ، فأوينا
إلى مغارةٍ نحتَمي فيها ، فلم نشعر حتى وجدنا حمار ابنك قد هرب في
الوادي ، فذهب يجرى خلفه ليردّه ، وإذا بذئبٍ كبيرٍ قد خرج واقترسه ،
وأكل الحمار ؛ وكنا في انتظاره ، فلما تأخرتُ عودته ، خرجنا نتفقّده ،
فراينا على هذه الحالة ، فرجعنا جزعين .

فبكت أمه وأعولت ، ولطمت وجهها ، وحشت التراب على رأسها ،
فأحاط بها جيرانها يواسونها ، ويخففون عنها بعض ما بها .

وذهب الخطأبون ففتحوا لهم متاجر ، وتحسنت حالتهم ، واتفقوا
فيما بينهم على أن يحملوا إلى أم كريم اليدين ما تحتاج إليه من طعام
وشراب .

وينما حاسب جالس في الجب يفكر في مصيره المظلم ، وفي كيفية الخلاص
مما هو فيه — إذا بحشرة تدب عليه فتعجب من وجود هذه الحشرة ،
فقام وصار يختبر جدران الجب ، فعثر بمكان هش ، وما كاد يعمل فيه
سكيناً كانت معه حتى فتحت له كوة نفذ له منها شيء من نور ، فدب
الأمل في نفسه ، وعمل جاهداً على توسيعها ، فالبث إلا قليلاً حتى صارت
الفجوة واسعة تتسع لمرويه ، فخرج منها ، وإذا به في دهليز طويل ،
فشى فيه ، فوجد بنهايته باباً كبيراً من حديد أسود ، وعليه قفل ومفتاح ،
فاقترب من الباب ، ونظر من خلاله ، فرأى نوراً ساطعاً ، فأيقن بالنجاة ،
ففتح الباب بالمفتاح ، ونفذ منه إلى الخارج ، فوجد نفسه في فضاء واسع ؛
فسار يتفقد المكان ، حتى أبصر على بُعد منه شيئاً يلمع ، فظنه بحيرة
ماء ، فسار متجهاً إليها ، فإذا هي تل من الزبرجد الأخضر ، نصبت عليه
منصة من الذهب اللامع المرصع بأنواع مختلفة من الجواهر ، وحول
تلك المنصة نصبت كراسي كثيرة جداً ، بعضها ذهب ، وبعضها فضة ؛
فتمعجب مما رأى ، وصعد إلى تلك المنصة ، وجلس يتأملها معجباً من

أمرها ، وأمر هذه الكراسى التى لا يوجدُ بقرىها أحد .
وبعد قليلٍ غلبه النومُ من شدة ما قاسى من التعبِ ، ولم يكد يفرقُ
فى نوم عميق حتى انتبهَ مذعوراً على صوتِ هَرْجٍ ومرَجٍ ، ونحيبٍ وصفيرٍ ؛
وإذا بهذه المقاعد الكثيرة التى كانت تملأ الساحة قد اعتلت كل مقعدٍ منها
حيةٌ عظيمةٌ ، تتوقد عيناها توقد الجمرِ ، تخاف خوفاً شديداً ، وارتعدَ
جسمُها ، وجفَّ ريقُها ، والتفتَ حوله فرأى جميعَ الساحة وقد امتلأتْ
بحياتٍ أخرى صغيرة ، فأيقن بالهلاكِ وأنه ما نجا من هلاكِ الجُبِّ
إلا ليموتَ ميتةً أشنعَ وأهولَ .

وفىما هو كذلك لا يَسْتَطِيعُ حراكاً ، رأى حيةً كبيرةً مثل الجملِ ،
قد أقبلتْ إلى وسطِ المكانِ ، وعلى ظهرها طبقٌ من الذهبِ ، وفوق هذا
الطبق حيةٌ تضىءُ مثل البلورِ ، ووجهُها وجهُ إنسانٍ . فلما اقتربتْ من
« حاسب » سلمتْ عليه بلسانٍ فصيحٍ ، فردَّ عليها السلام بصوتٍ
يرتعشُ

ونَهَضَتْ حيةٌ فرفعت الطبقَ عن ظهرِ الحيةِ الكبيرةِ ، ووضعتْهُ
على أحدِ الكراسى .

فصاحت الحيةُ التى كانت بالطبق بصوتٍ عالٍ ، نخرت جميعَ الحياتِ
فوق كراسيها ، ودعونَ لها .

والتفت الحيةُ إلى « حاسب » وقالت له :

لا تخفْ منّا — أيها الشابُّ — فإنى ملكة الحياتِ . ثم أشارت إلى

الحيات يُحضرنَ شيئاً من الطعام ، فَأَتَيْنَ بأنواعٍ مختلفة من الفاكهة ،
 ووضعنه أمام حاسب ؛ فقالت له الملكة :
 مرحباً بك أيها الشاب ، ما اسمك ؟
 فقال : اسمي « حاسب كريم اليمين » .
 فقالت : يا حاسب ؛ كل من هذه الفاكهة ، فما نملك طعاماً غيرها ،
 ولا تخف منا .

ولما أكل حاسب ، ورفع الطعام من أمامه ، قالت الحية :
 أخبرني يا حاسب ؛ مَنْ أَنْتَ ؟ ومن أين أتيتَ إلى هذا المكان ؟
 فقص عليها حاسب جميع ما جرى له حتى تركه رفقاؤه الخطابون في
 الجُب ؛ وكيف نجاه منه ، وخرج من الباب الحديدي إلى هذه الساحة ؛
 ثم ختم حديثه برجائه إياها أن تردّه إلى أهله ووطنه .
 قالت الحية الملكة :

هَوْنٌ عليك يا حاسب ، فإنك لن ترى إلّا خيراً كثيراً ، وستقيم
 معنّا مدة من الزمان ، أقصُ عليك فيها قصتي ، كما قصصت علينا قصتك ؛
 وستجد في قصتي عجائب وأهوالاً أكثر مما رأيتَ أَنْتَ من
 عجائب وأهوال .

قال حاسب : سمعاً وطاعة .

وظل مع ملكة الحيات يسمع منها ما أدهشه من قصص كثيرة ،
 كلها عجائب وغرائب .

وما فتئت الحية تَقْصُّ على حاسب أعجب القصص وأغربه؛ وكانت كلما انتهت من قصة طلب منها حاسب أن تعيده إلى أهله، فتستعمله، وتطلب منه أن يمكثَ معها وقتاً آخر، لأنها ستُسمِعُه أعجب وأغرب وأظرف مما سمع.

وخاف حاسب أن تكون وعودُ الحية الكثيرةُ مبالغةً في إهماله حتى يسأم الطلب، وحتى يألفَ العيشَ عندها، فيبقى معها، ويقضى أيامه مع هؤلاء الحيات بعيداً عن أمه وزوجته؛ فاكثرت نفسه، وأصبح لا يجد في حديثِ الحية العذب، وفي قصصها العجيب الغريب ما كان يجده قبلَ ذلك من عُذوبةٍ، ولا يُحسُّ ما كان يحسُّه من شوق.

وأدركت الحية ما اعتراه من انقباضٍ، فقالت له:

ما بالك يا حاسب قد مللتِ عِشْرَتَنَا؟

فبكى حاسب وقال:

والله ما بى إلاَّ حَيْنِي لوالدتي، فما لها أحدٌ غيري.

فأطرقت الحية برهةً ثم قالت:

إني ما حَجَزْتُكَ هنا إلاَّ لأنَّ في خروجك هلاكاً لي.

فقال متعجباً:

وكيف ذلك؟؟؟

قالت: إذا خرجت إلى أهلك، ثم دخلتَ الحَمَّامَ — كان في ذلك

مَوْتِي؛ لأن ذلك، هو ما كُتِبَ لي وقُدِّرَ.

زاد تعجب حاسب ، وأقسم لها أن تُخرجه على ألاّ تطأ قدمه عتبة
حمام جميع عمره .
فتمالت الحية :

أخاف يا حاسب إذا وصلت إلى بلادك أن تنقض العهد ، وتحنث
في اليمين .

فأقسم لها حاسب أيماناً مُغلظة ، وعاهدها عهداً وثيقاً — على ألاّ
يدخل حماماً قط .

فبكت الحية وودّعت ، وأمرت حيةً من أتباعها أن تخرجه على
وجه الأرض .

فأخذته الحية ، وسارت به ، حتى أخرجته إلى وجه الأرض من سطح
جُبِّ مهجور .

(٤)

وجد حاسب نفسه في مكانٍ مهجورٍ خالٍ ، ليس به إلاّ بعضُ
الأحجارِ والأخشابِ التالفة ، فأخذ يبحثُ عن الطريق ، ويتتبعُ المعالمَ
حتى عثر عليه .

فأنحدرَ نحو المدينة ، فدخلها مع غروبِ الشمس ؛ واتجه نحو منزله ،
يدفعهُ الفرحُ لملاقاةِ أهله ، ويرده الخوفُ خشيةً أن يكونوا قد ماتوا .

وطرق البابَ ، ففتحته أمُّه ، وما أبصرته حتى صَكَتْ وجهها ،
وصرختْ صرخةً دَوَّتْ ، ثم خرَّت مغشىً عليها من هول المفاجأة ؛
فتلقفها ولدها بين ذراعيه ، وهو يقبلُها ، وأخذَ يمسحُ رأسها حتى أفاقت ،
فنظرتْ إليه وهي لا تكاد تصدِّقُ أنه ابنُها ، فلما استيقنته طوقته
بذراعيها ، وانهالت عليه لثماً وتقبيلاً ، وهي تبكي من شدة فرحها .

وأنت زوجته تستطلع الخبر ، فوجدت حاسباً أمامها ، فلم تستطع
تصديق عينيها حتى سمعت صوته ، ومناداته لأمِّه ، فكان سرُّورها لا يعدله
إلا سرور أمِّه .

ودخل حاسب داره ، وبعد أن استراح ، وتناول ما أُعِدَّ له من طعامٍ ،
سأل أمِّه عن الخطَّابين الذين كانوا يحتطبون معه في الجبلِ .
فحدثته أمُّه حديثهم ، وما كان من شأنهم معها حينما عادوا من الجبل ،
وأخبروها أن الذئب افترس حاسباً ، ووصفت له ما صاروا عليه من غنى ،
ولم تنكر ما قدموه لها من مال ؛ ثم سأله سر غيبته .

فقصَّ حاسب عليها هي وزوجته بعض قصته ، ثم قال لأمِّه :

اذهبي غداً إلى الخطَّابين ، وقولي لهم : لقد حضر حاسب من سفره ،
فاحضروا ، وسلّموا عليه .

وفي غد ، ذهبت أمُّه فأتت بيوت الخطَّابين ، وأخبرتهم أن حاسباً
عاد من سفره .

فدهش الخطابون ، ووجفت قلوبهم ، وتشككوا في الأمر ،
فأكدته لهم .

وعقد الخطابون (التجار) اجتماعاً بينهم ، ينظرون فيه أمر هذا الخطب
الجليل الذي سيحل بهم ، ثم استدعوا بعض أصدقائهم يستشيرونهم .
فأشار عليهم الأصدقاء ، بعد أن عرفوا ما كان منهم لحاسب ، أن يعطيه
كل واحد منهم نصف ماله .

وبكر الخطابون إلى منزل حاسب ، حاملين الهدايا والأموال ؛ فسلموا
عليه ، وأعطوه ما جاءوا به ، وقالوا له : هذا من بعض إحسانك ، ونحن
بين يديك .

فقبل حاسب ما أتوه به ، وقال لهم :
لقد ساءتكم نفسى ، وما حصل لى كان مقدوراً على .
فقالوا له :

هيا بنا إلى حمام السوق ، وارتد هذه الحلة الجميلة ، التى أحضرناها لك .
فقال لهم :

لقد أقسمت ألا أدخل الحمام ما دمت حياً .

فقالوا : إذن ، هيا نضيفك فى منازلنا .

فقبل حاسب منهم ذلك .

وأضافه كل واحد منهم يوماً ، وأولم له وليمة كبيرة ، حضرها
الأصدقاء والأقارب .

وأصبح حاسب من كبار التجار بالمدينة ، يؤمُّه الناس جميعاً
لصدقه وأمانته .

وفي يوم عطلة المتاجر ، خرج حاسب يرتاضُ في المدينة ، فجاز بحمامٍ
يجلس صاحبه على بابه ، وكان صاحب الحمام يعرف حاسباً ، فما كاد يلمحه
حتى أسرع إليه مسلماً عليه ، ودعاهُ إلى دخول الحمام ، فاعتذر حاسب ،
فأقسم عليه الحمائي أن يدخل .

فقال له حاسب : لقد أقسمتُ يميناً ألا أدخل الحمام طيلة حياتي
فما كان من الحمائي إلا أن صاح مُقسماً أيماناً مغلظة أن لا بد من
دخول الحمام ، وكان الرجل إذا حنث في يمينه فرق القاضي بينه وبين نسائه .
فاجتمع الناسُ وعمال الحمام على حاسب يُلحّون عليه أن يدخل ،
وهو يمتنع .

ويقولون له : أتريد خراب بيت الرجل ؟ !!
والحمائي يتوسلُ إليه أن يدخل بعد أن صدرت منه هذه الأيمان .
ثم تكاثر عليه الجمع فأدخلوه كرهاً .
وما كاد يخلع عنه العمال ملابسه ، ويصبئون على رأسه الماء ، حتى تقدم
منه عدد من الرجال ، وقالوا له :

قم أيها الرجل ، فأنت طلبة السلطان .
وأرسلوا واحداً منهم إلى نائب السلطان ، الذي ما لبث أن حضر
ومعه عدد كبير من الرجال .

وتقدم الحاكم فحيا حاسباً ، وقدم له حصاناً ليركبه فركبه ، ثم ساروا به إلى قصر الحاكم ، بعد أن تقد الحاكم الحماى مائة دينار .
واستقبل حاسب فى قصر الحاكم استقبالاً رائعاً ، وقدمت له مائدة عظيمة ، وخلع عليه الحاكم خلعة فاخرة ؛ حدث ذلك كله وهو مشدوه مما يرى .

ثم قال له الحاكم :

اعلم أن الله قد منّ علينا بك ، ورحمنا بمحيثك ، فإن السلطان أشرف على الموت من الجذام الذى به ، وقد دلّت عندنا الكتب أن حياته على يديك .
فازداد عجب حاسب من هذه الأمور المهمة ، وهذا الكلام الغامض .
واصطحب الحاكم حاسباً ، وتوجّها فى عسكر كبير إلى مدينة الملك ، وقصدوا من فورهم إلى قصره ، واجتازوا أبواب القصر السبعة .
وأذن للحاكم ولحاسب بالدخول إلى حجرة الملك فدخلوا .
فوجد حاسب الملك راقداً على سرير ، ووجهه يحنّى تحت الأريطة ، وهو يئن ويتوجع ، وقد جلس بجانبه وزيره

ونفض الوزير لى دخول حاسب مرحباً به ، وأجلسه بجانبه ، وقال له : نحن جميعاً فى خدمتك ، وما تطلبه يصير إليك ، ولو طلبت نصف الملك أعطيناك إياه ، لأن شفاء الملك على يديك .

ثم أخذه إلى سرير الملك ، وكشف له عن وجهه ، فرآه حاسب ذابلاً متجعداً مقرحاً .

فتنهـد حاسب رائيـآله ، ومُشفقـآ على نفسه من هذه الأحاجي والألغاز .
ثم قال :

نعم إني ابنُ الحكيم دانيال ، لكنني لا أعرفُ شيئاً من العلم ، وبُودى
لو أعرفُ فأداوىَ الملك .
فقال الوزير :

لا فائدة من إطالة الكلام ، فلو جمعنا حكماء المشرق والمغرب لعجزوا
عن مداواة الملك ، إلا أنت ، فإنك تستطيع أن تداويه .
حاسب : كيف أداويه وأنا لا أعرفُ داءه ولا دواءه !!!
الوزير : إن دواء الملك عندك .

حاسب : لو كنتُ أعرفُ دواءه ، ما ترددتُ في مداواته .
الوزير : أنت تعرف دواءه ، فإن دواءه ملكة الحيات ، وأنت تعرفُ
مكانها ، ورأيـتها ، وكنتَ عندها .

وهنا ، انجلى الأمرُ ووضحت الحقيقة ، وعرف حاسب صدق قول
الحية ، وخشيتها من دخوله الحمام ، فندم ولات ساعة مندم !!!
ثم قال بصوت متهدج ، متقطع الزبرات :

ماذا !!! ملكة الحيات !!! أنا لا أعرفها ، وما سمعت بهذا الاسم قط .
قال الوزير :

لا تنكر معرفتها ، فإن عندي دليلاً على أنك تعرفها ، وأقمت عندها
سنتين .

قال حاسب :

أنا لا أعرفها ، وما رأيتها ، وما سمعت بها إلا الآن .
 فأحضر الوزير كتاباً وفتحه ، وجلس يقرأ فيه ويحسب ، ثم قال :
 إن ملكة الحيات تجتمعُ برجل ، ويمكثُ عندها سنتين ، ويرجع من
 عندها ، ويخرج على وجه الأرض ، فإذا دخل الحَمَام اسودَّ بطنه .
 وكان حاسب يسمع كلام الوزير ، وهو يرتجف ، ثم قال له الوزير :
 اكشف عن بطنك وانظر إليه .
 فنظرَ حاسب إلى بطنه فراه أسود .
 فقال : إن بطني كذلك من يوم ولادتي .

فهزَّ الوزير رأسه غير مصدِّق ، وقال : لقد كنتُ موَكِّلاً بكلِّ
 حَمامٍ نفرا من رجالي ، حتى إذا مارأوا أحداً اسودَّ بطنه — سارعوا إلى
 إبلاغِي خبره من غير أن يدعوه يُفلتُ من أيديهم ، فلما حضرت أنت
 ونظروا إلى بطنك فوجدوه قد اسودَّ — أبلغوني على عَجَل ، وليس عليك
 الآن إلا أن تُرينا المكان الذي خرجت منه من عند ملكة الحيات ،
 وسنُخْلِ سبيلك بعد ذلك .

أطرقَ حاسب ، وقد شملهُ الحزنُ ، وعمَّه الندمُ ، وجَمَلَ يفكرُ
 تفكيراً عميقاً في هذا الموقفِ المؤلم الذي اضطره إلى نكثِ الأيمان ،
 ونقضِ العهود .

وتوافدَ الأمراءُ والوزراءُ ، وكبارُ رجال الدولة يلاينونه ، ويلاطفونه .



ويستعطفونه ، ويتوسّلون إليه ؛ أن يرشدهم إلى مكان ملكة الحيات ،
وكانوا كلّما أمعنوا هم في ذلك أمعنَ هو في الإنكار ، ويؤكد لهم أنه
مارآها ولا يعرفُ عنها شيئاً .

فلما يئسوا منه ، وتأكّدوا أنه مُصر على الإنكار ، طلبَ الوزير
الجلّادَ ، وأمرهُ بنزع ثيابِ حاسبِ وجَلده جلدًا مُوجِعًا ، وأن يظلَّ
يُجلّده حتى يعترف .

فنفذَ الجلّادُ ما أمر به ، وأخذَ حاسبَ يتلوّى تحت السيّاطِ حتى
أشرف على الموت ، وعلى الرغم من أنه أوشكت نفسه على التلف —
فإنه بقي على إنكاره ، ولم يبيعْ بشيءٍ من سرّه .

فلما رأوه قد قاربَ الموت — أمر الوزيرَ الجلّادَ بالكفِّ عنه ،
وحملهُ الخدم ، وأخذوا يضمّدون له جراحه ، حتى أفاق من غشّية أصابته .
فلما أفاق قال له الوزيرُ :

إن لدينا دليلًا على أنك تعرف مكان ملكة الحيات ، فلماذا تنكره ؟
إنّا لا نطلب منك إلا أن تريتنا المكان الذي خرجت منه ، ثم تبعد
عنا ولك مقابل ذلك كلّ ما نطلب .

وأمر الوزير ، فأتوا لحاسب بحلّةٍ مزرّكشة بالذهب والجواهر ، وأخذ
جميعهم يلاطفونه ، ويمنّونه ، وهو صامتٌ لا ينطقُ ، فعادوا الشدّةَ
عليه ، فضعفتُ نفسه بعض الضعفِ ، وقال :

سأريكم المكانَ الذي خرجتُ منه ، ولا تسألوني شيئًا آخر بعد هذا .

فقالوا ! نعم هذا الذى نُبغيه منك .

فركبوا وركب حاسب ، وتوجهوا إلى المكان الذى خرج منه حاسب من عند ملكة الحيات ، وهو يَعْلَمُ أن معرفة هذا المكان لن تُجديهم شيئاً ، ولن يستطيع أحدُ المروق منه فيعودوا بخُفٍّ خُنٍّ .

فلما وصلوا أراهم حاسب البئر التى خرج منها ، وانتظر يرى خيبة أملهم ، فتقدم الوزير من البئر ، وكان يعلم كل فنون السحر والروحانية ، فأطلق البخور وجلس يقرأ التعاويذ ، ويتلو الرُقى ، وينفث ويهمهم ؛ وكلما فرغ بخور أطلق غيره ، وعاود القراءة ؛ ثم قال :
أُخرجى يا ملكة الحيات .

وما كاد ينتهى من كلامه حتى زلزل المكان زلزالاً شديداً ، وارتجت البئر رجاً عنيفاً ، وفاض ماؤها ، وانفتح بها باب ، وانطلق منه صوتٌ عظيم كأنه الرعد ، فوجف الحاضرون وذُعروا ، وظنوا أن البئر قد انهدمت ، فدخل بعضهم فى بعض ، ووقع بعضهم مغشياً عليه مما به من الخوف والرعب ؛ إلا الوزير فإنه لم يكف عن القراءة والترتيل .

وبعد قليل تشاءب البئر عن حيةٍ عظيمةٍ تخرجُ منه ، تقدحُ عيناها شرراً ، وينفث فوها جراً ، وعلى ظهرها طبق من الذهب الأحمر المرصع بالدرّ والجوهر ، عليه حيةٌ تضىء ، ووجهها وجه إنسانٍ هى ملكة الحيات .
ودارت ملكة الحيات بعينها هنا وهناك ، حتى وقعت على

حاسب ، فقالت :

أَيْنَ الْعَهْدُ الَّذِي عَاهَدْتَنِي عَلَيْهِ ١٢ ! أَيْنَ الْيَمِينُ الْمَغْلَظَةُ الَّتِي أَقْسَمْتُهَا
لِي أَنْكَ لَا تَدْخُلُ الْحَمَّامَ ؟ !

فَتَقَدَّمَ مِنْهَا حَاسِبٌ وَهُوَ يَبْكِي ، وَلَا يَسْتَطِيعُ رُؤْيَا طَرِيقَهُ خِلَالَ
سَحَابَاتِ دُمُوعِهِ ، وَأَخَذَ يَمْتَدِّرُ إِلَيْهَا ، وَيَكْشِفُ لَهَا عَنْ بَعْضِ جَسَمِهِ
لِتَرِيَهَا شَيْئًا مِمَّا أَصَابَهُ مِنْ كَثْرَةِ الضَّرْبِ بِالسَّيَاطِ .
فَقَالَتِ الْحَيَّةُ وَقَدْ سَالَتْ دُمُوعُهَا :

لَا تَنْفَعُ حِيلَةٌ فِيمَا قَدَّرَ اللَّهُ ، فَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ آخِرَ
عَمْرِي عَلَى يَدَيْكَ ، وَأَنْ أَقْتُلَ أَنَا وَبِشْنَى الْمَلِكِ .

وَبَكَتِ الْحَيَّةُ بَكَاءً شَدِيدًا وَحَاسِبٌ يَبْكِي لِبَكَائِهَا .
فَتَقَدَّمَ الْوَزِيرُ مِنَ الْحَيَّةِ ، وَمَدَّ يَدَهُ لِيَمْسُكَهَا ؛ فَقَالَتْ لَهُ :
إِلَيْكَ عَنِّي أَيُّهَا الرَّجُلُ ، لَا تَمُدَّ يَدَكَ عَلَيَّ ، وَإِلَّا نَفَخْتُ عَلَيْكَ نَفْخَةً
صَيَّرْتُكَ رَمَادًا .

ثُمَّ صَاحَتْ بِحَاسِبٍ ، وَقَالَتْ لَهُ :
تَعَالَ عِنْدِي وَخُذْنِي بِيَدِكَ ، وَضَعْنِي فِي هَذَا الْوَعَاءِ الَّذِي مَعَكُمْ ،
وَاحْمِلْهُ عَلَى رَأْسِكَ ، فَوْقِي عَلَى يَدِكَ مَقْدُورٌ مِنْذُ الْأَزَلِّ ، وَلَا حِيلَةَ لَكَ
فِي دَفْعِهِ .

فَأَخَذَهَا حَاسِبٌ ، وَحَمَلَهَا عَلَى رَأْسِهِ ، وَعَادَتْ الْبُئْرُ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ .
وَقَفَلَ الْجَمِيعُ عَائِدِينَ ، وَحَاسِبٌ يَحْمِلُ الْحَيَّةَ ، فَهَمَسَتْ فِي أُذُنِهِ قَائِلَةً :
أَصْغِ إِلَيَّ يَا حَاسِبُ . حِينَمَا نَصِلُ إِلَى مَنْزِلِ الْوَزِيرِ سَيَقُولُ لَكَ : اذْهَبْ

ملكة الحياتِ ، وقسمها ثلاث قطع ؛ فامتنع عن ذبحي ، وقل له :
 إني لا أعرفُ الذبيح ، كي يذبحني هو فإذا ما ذبحني وقطعني ، فسيأتيه
 رسولٌ في هذا الوقتِ من عند الملك يستدعيه على عجلٍ ، فيضع اللحم في
 قدرٍ ويضع القدر على النار ، ثم يقول لك : راقب هذا اللحم حتى أعود ،
 فإذا ما غلت القِدْر ، طفت على وجهها رغوةٌ ، فاكشطها ، وضعها في
 زجاجةٍ ، وانتظر حتى تبرد ، ثم اشربها ، فإنك إن شربتها يسبغ الله
 عليك صحةً وعافية .

وإذا استمرت القدر في الغليان خرجت الرغوة الثانية ، فاكشطها
 أيضاً ، وضعها في زجاجةٍ أخرى حتى أشربها أنا لمرض الشيخوخة الذي
 لحقني ، وسيرتدّ إليّ بعض شبّابي .

سيقول لك كلُّ هذا ، ويعطيك الزجاجةين وينصرف ، ولكن
 احذر أن تنفذ قوله ، ونفذ ما أقوله لك .

قم أنت على القدر ، وحينما تخرجُ الرغوةُ الأولى خذها وضعها في
 الزجاجة ، وإياك أن تشربها ، فإنك إن شربتها لحقك ضررٌ عظيم ، وما
 طلبَ الوزير منك شربها إلا ليتخلصَ منك ؛ وحينما تخرج الرغوةُ
 الثانية خذها وضعها في وعاء ، وأخفها عن عينيه ، ثم احفظها حتى تشربها
 أنت ؛ فإذا رجع الوزير من عند الملك وطلب منك الزجاجة الثانية ، فأعطه
 الأولى ، ثم اشرب أنت الثانية ، وإنك إن فعلتَ فستفجر العلم من
 جوانبك ، وتنطق الحكمة من نواحيك ، ثم أخرج اللحم وضعه في

وعاء، وقدمه للملك ليأكله، ويأتي عليه؛ وسيغدو صحيحا
لا يشكو ألما، ولا يُحسُّ مرضا، وختمت الحية كلامها بقولها:

حافظ على هذه النصيحة، واعمل بها يا حاسب.

فقال لها حاسب، وهو يبكي متأثرا لإخلاصها:

إني أعِدُّكَ بذلك شاكرًا لكِ كلِّ أفضالك.

فلما وصلوا إلى بيت الوزير، وتفرقت الجنود، قال الوزير لـ
اذبح ملكة الحيات.

قال حاسب: إني لا أعرفُ الذبح.

أسرع الوزير إلى السَّكين وشحذها، وأخذ ملكة الحيات
وحاسب يبكي مُرَّ البكاء.

فقال له الوزير وهو يضحك:

يا مَعْتَوْه، أَتَبْكِي من أجل ذبح حية؟!!

ثم قطعها ثلاث قطع، ووضعها في قِدرٍ على النار؛ لينضج
وقبل أن تغلي القدرُ أتى رسول الملك يستدعيه على عجلٍ، فأوصى
بما ذكرته له الحية من قبل.

ولما خرج الوزير، فعل حاسب كما أمرته.

وعاد الوزير فسأل حاسبًا عن الزجاجةَيْن، فقال له:

لقد شربتُ الآنَ الزجاجةَ الأولى كما أوصيتني.

وأراه الزجاجةَ الثانيةَ فارغةً على أنها الأولى.

فنظر الوزير إليه مُرتاباً في أمره، وقال : مالك ؟ ! لا يَبْدُو عليك شيء !
فقال حاسب :

إني أَحِسُّ أن جِسْمِي يَشْتَعِلُ نارا .
فسر الوزير في نَفْسِهِ ، وقال لحاسب :
إذن ، أَعْطِنِي الزجاجةَ الثانيةَ حتى أَشْرِبَهَا .
فأعطاه حاسب الزجاجةَ الأولى التي أوصته الحية أن يُعْطِيه إياها ،
فشربها الوزير من فورِهِ ، وما كاد يَأْتِي على آخرها ، حتى سقطت الزجاجة
من يَدِهِ التي ارتعشت وتخاذلت ، وارتخت إلى جانبه .

فنظر حاسب إليه ، فوجده قد تورمَ جِسْمُهُ وانتفخ ، ثم سقطَ ميتاً
كأنه سُقِيَ سُماً زُعافاً ، وصدق فيه قول صاحب المثل : (من حفرَ بُراً لِأَخِيهِ
وقع فيها) .

فارتعبَ حاسب لذلك أشدَّ الارتعاب ، وارتاعَ أقسى ارتياع ،
وأدركَ عَظَمَ المصير المؤلم الذي أَرَادَهُ له الوزير ، وأتقذته ملكة الحيات منه .
خاف حاسب ، وأَرَادَ أن يَسْكُبَ ما في الوعاء الذي احتفظ به لِنَفْسِهِ ،
ولكنه عاد فعدل وهو يقول :

لو كانت الرغبةُ الثانيةُ مُضِرَّةً ، ما اختارَهَا الوزير لِنَفْسِهِ ، وما
أوصتنِي الحية أن أحتفظَ بِهَا لى من دون الوزير . لقد سلمت أَمْرِي إلى
الله ، وما قدرَهُ اللهُ يَكُونُ .

ثم رفع الإِنَاءَ فشربه . وأخذَ قِدرَ اللحم وخرج إلى قَصْرِ الملك .

تفجر العلم من جوانب حاسب ، ونطقت الحكمة من نواحيه ،
وفاض قلبه نورا من العرفان ؛ ففرح لذلك أى فرح .

رفع رأسه إلى السماء ، فرأى الأفلاك في مسارها ، وشاهد النجوم
في مدارها ، فعرف سير الكواكب وحسابها ، وكسوفها وخسوفها ،
وقربها وبعدّها ، ومطالعها ومغاربها ، وما تجرى به على الإنسان من
سعد ونحس .

ونظر إلى الأرض ، فعرف ما في جوفها من المعادن ، وما على ظهرها
من النباتات والأشجار ، وعلم ما لها من الخواصّ والمنافع ، واستنبط
من ذلك أشياء كثيرة أفادته في الطب والكيمياء ، وعرف علم الهندسة
والنجوم والسيما .

فحمّد الله وشكر له نعمته .

ولما مثل حاسب بين يدي الملك ، نعى إليه وزيره ، فبهت الملك ،
وتملكه الحزن العميق لموت وزيره ، وخشى أن يكون قد مسّه أحد
بسوء ، وقال لحاسب :

كيف مات ؟ ! لقد كان عندي الآن ، وهو على خير ما يكون صحة
وعافية ، وذهب ليأتيني باللحم ، فما سبب موته ؟ ! وأى عارض
عرض له ؟ !

فكشف له حاسب الحقيقة ، وقال له :
لا تحملُ هَمًّا أيها الملكُ ، فإنِّي أداويك في أقصر وقتٍ ، وأنجيك
من هذه العِلَّةِ المِلْحَةِ التي لازمتك زمناً طويلاً .

فُسِّرَ الملكُ لقربِ شِفائِهِ ، ودعا حاسباً يفعلُ ما يُريدُ .
فأخذ حاسبُ قطعةً من لحمِ ملكةِ الحيات ، وأطعمَهَا الملكَ ، ثم طلب
إليه أَنْ يَنَامَ ، وبعدَ أَنْ نالَ الملكُ قسطاً وافراً من النَّومِ ، أيقظه حاسبٌ
وسقاه شراباً ، ثم أَنامه ثانياً .

وفي اليومِ الثاني ، والثالث ، فعلَ معه كما فعلَ في اليومِ الأولِ ، حتى
انتهت قطعُ اللحمِ الثلاث .

وفي صباحِ اليومِ الرابع ، استيقظَ الملكُ من نومه نشيطاً مُعافىً
لا يشعرُ بشيءٍ من الأمراضِ والأوجاعِ ، فالتأمت جُروحُه ، ونفضت
قشورها ، فأدخله حاسبُ الحمام ، وغسلَ له جسمه ، فصار جلده نظيفاً
سليماً .

وخرجَ الملكُ فجلسَ على عرشه الخالي منذ سنين ، مرتدياً ملابسه
التمينة المزركشة التي حرم ارتداؤها وقتاً طويلاً .

ودعا حاسباً فأجلسه بجانبه ، ثم أذن للأُمراءِ والوزراءِ وكبارِ رجالِ
الدولةِ بالدخولِ ، فدخلوا عليه وهنأوه بالعافية .

وأعلنوا ذلكَ في المدينةِ ، فدقتِ الطبولُ ، وزُيِّنتِ المدينةُ فرحاً
لسلامةِ الملكِ .

وقال الملك لأرباب دولته :

يا معشر الأمراء ، والوزراء ، والكبراء .

هذا حاسب كريمُ الدين ، الذى شفىانى من مرضى . اعلموا أننى قد جعلته وزيراً أعظم ، فمن أحبه فقد أحببني ، ومن أكرمه فقد أكرمني ، ومن أطاعه فقد أطاعني .

فقال جميعهم : سمعاً وطاعة .

ثم نهضوا فقبلوا يد حاسب ، وسلموا عليه وهنأوه .

وخلع عليه الملكُ خلعاً ثميناً ، وأهدى إليه الجوارى والمماليك .

وأمر فحُملتْ إلى منزله الذى خُصصَ له التحفُ الثمينة ، والأثاثُ الفاخر ، والرياش الثمينة .

وقصد حاسب إلى منزله الجديد الفخم ، يتحَفُّ به كبارُ الرجال ، وتحيط به صفوفُ الجنود .

وحضرت أمُّه فرحةً فقبلته وهنأته ، واسقبلته زوجته ، وقد استخفَّها الفرح والسرور .

(٦)

ونال حاسب كريم الدين أمنيَّةً أيَّه وأمه فى أنْ يكونَ أحكمَ أهل زمانه .

وانتشر صيته وشاعَتْ حكْمَتُهُ ، واشتهر باستبحاره فى كلِّ العلوم .

و ذات يومٍ قال لوالدته :

يا أمي ، لقد كان أبي دانيالُ عالماً فاضلاً ، فأين ما خلفه من الكتب ؟
فأحضرتُ أمه الصندوق وبه الخمسُ الورقات ، وأعطته إياها .

فقال : هذه ورقاتٌ من كتابٍ ، فأين بقيته ؟

فردتُ عليه ما كان من ضياع الكتب ، وكيف لم تنجُ إلا هذه
الورقات الخمس التي أوصى والده بإعطائه إياها عند ما يسألُ عما خلفه له
أبوه من نراثٍ علميٍّ .

فقرأها حاسب ، فوجد بها ما يفعله الذي سيكون على يديه خروج
ملكة الحيات .

فتعجب حاسب من ذلك أشدَّ العجب ، وعلم أن والده كان يعلم أن
ابنه هو الذي سيكون على يديه هذا الأمر ، فأراد تبصيره ، ولكنه
لم يُوصِّ والدته بإعطائه إياها إلا بعد أن يسألَ ولده عن كتب أبيه ،
ويرغبَ في النهل من حكمتها ، وبذلك يكونُ أهلاً لأن يكونَ أحكم
أهل زمانه .

وعلم أنه قد جاء متأخراً في طلبه ، ولولا طيبُ ملكة الحيات ،
وإخلاصُها له — لفات عليه هذا الأمر .

وعاش حاسب بقية حياته سعيداً هائلاً ، لا تغربُ عن باله ملكةُ
الحيات ، التي خدمته حيةً وميتةً .



على نور الدين ومريم الزنارية

(١)

كانَ في الزمنِ الأولِ تاجرٌ بمصرَ اسمه تاجُ الدين ، عُرفَ بكثرةِ
الأموالِ ، وسعةِ التجارةِ ، والصدقِ والوفاءِ والأمانةِ ، وكانَ كثيرَ
الارتحالِ في طلبِ المالِ ، لا يهْمُهُ صُعوبةُ البرِّ ، ولا خُطورةُ البحرِ ؛ وقاسى
في أسفاره من الأهوالِ ما تشيَّبُ له الأطفالُ ؛ وهو إلى هذا حَسَنُ المقالِ ،
جميلُ القوامِ ، زقيقُ العواطفِ ، محبوبٌ إلى الناسِ .

وكانَ ابنُهُ على نورُ الدين جميلَ الهيئةِ ، بديعَ الخلقةِ ، ذاجبينَ أزهرَ ،
وخذَّ أحمرَ ، وعذارٍ أخضرَ ، وطرفٍ مكحولَ ، وقوامٍ ممشوقَ .

جَلَسَ فِي دُكَّانِ أَبِيهِ ذَاتَ يَوْمٍ ، فَجَاءَهُ أَبْنَاءُ التَّجَارِ ، وَعَرَضُوا عَلَيْهِ أَنْ يَنْهَبَ مَعَهُمْ إِلَى بُسْتَانٍ لِلزَّهَةِ ، فَقَالَ لَهُمْ : حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي .

فَلَمَّا أَذِنَ لَهُ أَبُوهُ ، وَأَعْطَاهُ شَيْئًا مِنَ الْمَالِ يَنْفَقُهُ — رَكِبُوا جَمِيعُهُمْ دَوَابَّهُمْ ، وَسَاقُواهَا إِلَى بُسْتَانٍ مَشِيدٍ الْأَرْكَانَ ، رَفِيعِ الْبُنْيَانِ ، لَهُ بَابٌ وَاسِعٌ كَأَنَّهُ الْإِيوَانُ ، وَفِيهِ صُنُوفٌ مِنَ الْأَعْنَابِ وَغَيْرِ الْأَعْنَابِ ، مِنْ كُلِّ مَا لَذَّ وَطَابُ ، وَبِهِ عَرِيشَةٌ جُلَسَ فِيهَا بَوَّابُهُ رَضْوَانُ .

وَبَعْدَ أَنْ طَافُوا بِأَشْجَارِهِ ، وَتَمَتَّعُوا أَنْظَارَهُمْ بِثَمَارِهِ وَأَزْهَارِهِ — جَلَسُوا فِي لِيْوَانِهِ ، وَأَجْلَسُوا نُورَ الدِّينِ فِي وَسْطِهِ ، عَلَى نِطْعٍ مِنْ أَدِيمٍ مُزْرٍ كَشَ ، مُتَكِّئًا عَلَى مَخْدَةٍ لَيِّنَةٍ ، وَنَاولُوهُ مِرْوَحَةً مِنْ رِيَشِ النِّعَامِ ، وَنَزَعُوا مَا عَلَيْهِمْ مِنْ ثِيَابٍ وَعِمَائِمَ ، وَأَخَذُوا يَتَحَادَثُونَ فَرَحِينَ ، وَبَعْدَ مَدَّةٍ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ عَبْدٌ أَسْوَدٌ يَحْمِلُ مَائِدَةً ، عَلَيْهَا أَطْعَمَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ ، مِنْ ضَأْنٍ وَدَجَاجٍ وَسَمَكٍ وَحَمَامٍ ، وَكَانَ أَحَدُهُمْ قَدْ وَصَى بَيْتَهُ أَنْ يَحْضَرَ لَهُمْ تِلْكَ الْمَائِدَةَ ، فَأَكَلُوا جَمِيعُهُمْ حَتَّى شَبِعُوا ، ثُمَّ غَسَلُوا أَيْدِيَهُمْ وَرَجَعُوا إِلَى حَدِيثِهِمْ ، ثُمَّ جَاءَهُمْ خَادِمُ الْبُسْتَانِ يَحْمِلُ سَلَةً مِنَ الْوَرْدِ فَوَزَّعَهُ عَلَيْهِمْ .

فَلَمَّا كَانَ الْوَرْدُ فِي أَيْدِيهِمْ وَضَعَ أَمَامَهُمْ سُفْرَةً مَزْرُوكَةً بِالزَّهَبِ الْأَحْمَرِ وَعَلَيْهَا شَرَابٌ ، ثُمَّ مَلَأَ الْكُؤُوسَ ، وَدَارَبَهَا عَلَى الْجُلُوسِ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى عَلَى نُورِ الدِّينِ ، فَامْتَنَعَ مُعْتَذِرًا وَقَالَ : هَذِهِ خَمْرٌ ، كُلُّهَا إِنْكُمْ وَوَزَرَ ، وَلَمْ أَذُقْهَا أَبَدًا ، وَلَا أَحِبُّ أَنْ أُغْضِبَ بِشَرِبِهَا رَبِّي .

فَقَالَ الْبُسْتَانِيُّ : إِنْ كَانَ فِيهَا إِنْكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، يَغْفِرُ الذَّنْبَ

وَيَقْبَلُ التَّوْبَ ، وقد قال الشاعر :

كُنْ كَيْفَ شِئْتَ فَإِنَّ اللَّهَ ذُو كَرَمٍ
وما عليك إذا أذنبت من باسٍ
إلا اثنتين فلا تقر بهما أبداً
الشُّرْكُ بالله والإضرارُ بالإناسِ

فقال نور الدين : إنه غافِرُ الذنب وقابل التَّوْبَ وشديد العقاب ، وكلَّ امرئٍ بما كسبَ رهين ، وقد أمرنا الله باجتناب كلِّ إثمٍ وعُدوان . فتقدم إليه أحد الأبناء وأقسمَ عليه أن يشرب كأسه ، وحلف آخرُ أن يشربها ، وجعل آخرُ يُنفِره من مخالفةِ إخوانه ، وجعل آخرُ يشوِّهُ له تعكيرَ صفوفِ مجلسهم ، فضعفت عزيمةُ نور الدين ، أمام هذه الحملة العنيفة الإجماعية من إخوانه ، وأخذ جرعةً من الكأسِ ، ثم بصقها قائلاً : إنها مُرَّةٌ ، ولا صبر لي على المرِّ . فوضع البستانى فى كأس نور الدين قطعةً من السكر وقال :

اشرب الآن فقد ضاعت مرارتها ، وستجدها حلوةً لذيذةً . فشربها مُكرهاً ، فكان لإخوانه من هذه الكأس خَيْرٌ مُعينٍ لهم على أن سَقَوْهُ أخرى وأخرى ، حتى سَقَوْهُ عشرَ كؤوس ، فلعبت برأسه ، وثقلَ لسانه ، واستمعهم كلامه ، ولكنه استطاع أن يقول : يا إخوانى : ما أجل مجلسكم ! وما أعذب حديثكم ! ولكن ينقصه صبيةٌ تغنى ، فلا فائدة من شرابٍ لا يصحبه غناء . فركب صاحب البستان بغلةً وغابَ

ساعة ، ثم رجع إليهم ومعه صبية كالفضّة النقية ، والغزال في البرية ، ذات وجهٍ يُخجِلُ الشمس المضية ، وعيون ساحرةٍ بابلية ، وحواجب كالقسيّ المحنية ، وخدودٍ وردية ، وأسنان لؤلؤية ، وقال البستاني لتلك الصبية : ما جئنا بك إلا لتطربني وتنادي نور الدين ، فإنه لم يزرنا إلا هذه المرة . فقالت : ليتك أخبرتني وأنت عندي ، حتى أحضر معي أدوات الطرب ، فقال : استريحى أنتِ هنا وتحملينى أمانةً أحضرُ بها ما تريدين ، فقالت : خذ معك منديلى هذا أمانةً ، لتُحضرَ به كيساً من حرير أخضر ، فى مكان « كذا » من منزلى . فلما جاءها به أخرجت اثنتين وثلاثين قطعةً من الخشب . ثم جعلت تضم بعضها إلى بعض على نحوٍ خاصّ تعرفه ، وأنشأت منها عوداً جميلاً ، وانحنت عليه انحناء الأمّ على ولدها ، وابتغضته بأناملها ، فملأ الأسماع عذب الألحان ، فلما سمع ذلك نور الدين أحبّ الصبيّة ، وظهر ذلك الحبّ فى نظراته إليها وكذلك أحبته الصبية ، لأنه أجلّ الحاضرين ، وأعذبهم قولاً ، وأرقهم عاطفةً ، وأشرفهم شعوراً . وكان طربُ نور الدين عظيماً لحسنِ شعرها ، وعذوبة لفظها ، وطلاقة لسانها ، وشهى ألحانها ، فهام بحبّها ، وانتهى المجلس ، ونهض نور الدين قائماً .

فقالت : إلى أين ياسيدى ؟ فقال : إلى بيت والدى . وعبثاً حاول إخوانه أبناء التجار أن يُبقوه لينام معهم : فلما دخل على أمّه فرحت بقدومه ، وقالت :

لقد طالت غيبتك ، وقلقنا من أجلك ، ثم همت بتقبيله فشمت رائحة
الخر في فيه ، فقالت : أبعد صلاتك وعبادتك تشرب الخر ، وتعصى من
له الخلق والأمر ، وإليه المرجع والمصير ؟ ! فلم ينطق بكلمة وذهب إلى
فراشه ونام .

وحضر أبوه فسأل عنه وعما جعله يلجأ إلى فراشه وينام .
فقالت أمه : لعلّ النزهة أتعبه فقال إلى الراحة ، وربما يشكو ألماً
في رأسه . فتقدم إليه أبوه ليعرف حاله ، فشم هو أيضاً رائحة الخر مُنبعثاً
من فيه ، فغضب وقال :

أبلغ بك السفه إلى حدّ أن تشرب الخر ، فتخالف والدك وتعصى
ربك ؟ !

وكان نور الدين غارقاً في سكره ، لا يدري ما يفعله ، فاطم وجهه أيّيه ،
فأصاب بضربته عينه ، فوقع مغشياً عليه ، ولما أفاق من غشيته حلف أن
يقطع في الصباح يداينه اليمنى ، التي لطم بها وجهه أيّيه ، فضاق صدر أمه
وخافت على ابنها ، ولم تزل تخفف من غضبه حتى نام .

وفي منتصف هذه الليلة المقمرة استيقظ نور الدين وقد أفاق من
سكره ، فقالت له أمه : ما هذا المنكر الذي فعلته ؟

فقال : وماذا ؟

فقالت : لقد ضربت أباك على عينه ، وحلف أن يقطع في الصباح
يدك اليمنى .

فقال في حزنٍ أليم : لم أكنْ أدري ما فعلت !

فأشارتْ عليه أن يخرج في هذا الوقتِ ويهرب عند أحد أصحابه حتى يأتي الله بالفرج ، وتمهدَ له سبيل النجاة ، ولعلَّ الله يغيّر حالاً بعد حال ، وناولته كيساً به مائة دينار يستعين بها ، وأمرته أن يتصلَ بها سرّاً ، حتى يدومَ عطفها عليه ، وإمدادها إياه بالمال الذي يحتاجُ إليه ، إلى أن يجعل الله لهم من هذا الضيق مخرجاً ، ثم استودعته الله في بكاءٍ وحزنٍ أليمين .

(٢)

خرج نور الدين ومعه كيسٌ به مائة دينار ، وكيسٌ آخرٌ به ألف دينار كان بجوار صندوقٍ لأمه في الحجرة فأخذه معه ، ثم انسلَّ من زقاق ، ومشى قاصداً « بولاق » ، رصل إليه في الصباح ، وصار يمشى على ساحل النهر هُناك ، فرأى مركباً راسياً ، وسأل أصحابه : إلى أين تذهبون ؟ فقالوا : إلى الإسكندرية .

فعرض عليهم أن يُسافر معهم إليها فرفضوا فرحين ، واستأذنهم أن يذهب إلى السوق ليشتري حاجته من زادٍ وفرشٍ وغطاء ، على أن ينتظروه حتى يرجع إليهم . فانتظروه بعض الوقت إلى أن عاد إليهم ومعه ما اشتراه ، ثم سار المركبُ به حتى كان عند مدينة رشيد ؛ وكان هناك زورق يسير إلى مدينة الإسكندرية ، فركب فيه نور الدين ؛ وسار به حتى طلع منه عند قنطرةٍ قريبةٍ من باب سدره ، وما زال ماشياً حتى دخل

مدينة الإسكندرية ، فرآها حَصِينَةً الأسوار ، جميلة المتنزهات ، مرتفعة الأبنية ، مُنَسَّقة مُنظمة ، عامرة بالسكان ، يَأْلَفُها من ينزل فيها ، وتزهو على غيرها ببحرها الذي هُوَ كُلُّ وقتٍ يحْيِيها ، ويبعثُ فيها الحياة السعيدة ، بطيب هوائه ، وحسنِ منظره .

فشى نور الدين فيها حتى كان في سوقِ النجارين ، ثم تركها إلى سوقِ الصّرافين ، ثم إلى سوقِ البقلية ، ثم إلى غيرها من أسواق الفاكهيين والعطارين .

وبينما هو سائرٌ في سوق العطارين أقبل عليه من دكانه رجلٌ عجوز وسَلَّمَ عليه ، ثم أمسك يده وسار به إلى منزله ، ودخل به في زقاقٍ جميل مكنوسٍ مرشوش ، قد هَبَّ فيه النسيم صافياً عالياً ، وأظلته الأشجار بظلالها الممدودة ، حتى وصلا إلى دارٍ في صدر الزقاق ، فدخلها الشيخ ومعه نور الدين ، فرآها واسعة الحجرات ، مفروشة بالأثاث الفاخر الذي يدلُّ على أن صاحبها من الأغنياء الموسرين ، فجلسا وأكلا طعاماً شهياً ، ثم قال الشيخ : يا بُنَيَّ ، لا تبرح هذه الدار ، وسأجعلُ لك فيها مسكناً خاصاً بك على أن أقوم بما تحتاج إليه من نفقات المعيشة ، ولا تجعلُ لضيق الغربة إلى صدرك سبيلاً .

فقال نور الدين : أحبُّ أن أعرف من أنت أيها الشيخ الكريم ؟ فقال : دخلت مصر واشتغلتُ بالتجارة فيها ، ومرّت بي أزمةٌ ماليةٌ احتجّتُ فيها إلى ألف دينار ، كانت ديناً علىَّ إلى التجّارِ ثمناً لبضاعةٍ ،

فدفعها عني والدك على غير معرفة ، ولما يسر الله لي رددتها إليه شاكرًا ،
ولا أزالُ ذاكرًا معروفيه ، وكنتُ قد رأيتُك وأنتَ صغيرٌ فعرفتُك
الآن ؛ وأحبُّ أن أجزيَ بالخيرِ والدك ، وأرُدَّ جميله بإكرامك أضعافًا
مضاعفة ؛ ففرح نور الدين ، وناولَه الكيسَ الذي به ألفُ دينار ، على أن
يكون وديعةً عنده ، حتى يشتري به بضاعةً يتجرُّ فيها .

أقام نور الدين بالإسكندرية مدة ، مُتنقلاً بين شوارعها ومُتزهاتها
وهو ينفقُ من المائة دينار حتى نفدتْ ، فذهبَ إلى الشيخ في دكانه ليأخذ
شيئًا من وديعته يُنفقه ، وجلسَ ينتظرُه ، ويتأملُ في التجار وأقوالهم
وأفعالهم ، وبينما هو جالسٌ إذ أقبلَ أعجميٌّ راكبًا بعلة ، ومن خلفه جارية
سَمجة الوجه ، صافية البشرة ، كأنها خلقت من نور .

نزل الأعجميُّ وأنزل الجارية ، ثم صاح بالدَّلال فحضرَ بين يديه ،
فأمرُه أن يأخذ الجاريةَ ليبيعهما في السوق ؛ وبعد ساعة رجعَ الدَّلال ومعه
الجارية وكرسیٌّ من « الآبنوس » المطَّعم بالفضة ، فأجلس الجارية عليه ،
ثم كشف القناعَ عن وجهها ، فحسبته كوكبًا دريًّا .

ثم قال الدلال للتجار :

كم تدفعون في درّة الغواص ؟

فقال تاجرٌ : على بمائة دينار .

وقال آخرٌ : بمائتين .

وقال ثالثٌ : بثلاثمائة .



وما زال ثمنها يزيد حتى بلغ تسعمائة وخمسين ديناراً ، ولم يزد بعد ذلك ديناراً واحداً ، فأقبل الدلال على الأعجمي يستشيره ويسأله :
هل تبيع الحارية بتسعمائة وخمسين ديناراً ؟

فقال : لقد ضعفتُ في سفرتي هذه فأكرمتني ، وقامت بخدمتي على أحسن وجه ، ولهذا فقد جعلتُ بيعها في يديها فاسألوها : أترضى بذلك البيع أم لا ؟

فسألها الدلال : قد جعلَ سيدكُ أمراً يبعك في يدك ، وقد بلغ ثمنك تسعمائة وخمسين ديناراً ، فهل أنت راضية ؟

فقالت : أرني الرجل الذي يريدُ شرائي قبل أن أُجيزَ البيع .
فجاءها الدلالُ بشيخ عجوز ، فحدّثتُ فيه يبصرها طويلاً ثم التفتت إلى الدلال قائلة : هل أصابك جنون ؟ !

فقال : لماذا ؟ !

فقالت : ألا تخافُ من الله حتى تبيعني لهذا الشيخ العجوز الذي يشتمُ زوجه ويرميها بأقبح الأوصاف ؟ ! لقد أضعفَ الكبرُ جسمه وعقله فأصبح لا يصحُّ شيءٌ سليم في ذهنه .

فقال الشيخُ للدلال غاضباً : يا أنجس الدالين ، ما جئتنا إلا بجارية بذيئة اللسان ، لا تُترلُ الناس منازلهم .

فالتفت إليها الدلالُ قائلاً : لا تكوني سيئة الخلق ، فقد اعتديتِ

على شيخ السوق ، وأسأت إلى مشورة التجار .
فضحكت وقالت : لا أرضى أن أبيع لهذا الشيخ ولو ملأ حجري
ذهباً .

فعرض عليها تاجراً آخر غنياً وقال : أرضيت أن أبيعك إلى سيدى
شرف الدين هذا بتسمائة وخمسين ديناراً ؟

فنظرت إليه فوجدته قد صبغ لحيته ، فقالت : لا تزال متهما في
عقلك عندي إذ تعرض على شيخاً فانياً ، فهل رأيتنى روحاً بلا جسد حتى
تطوف بى على شيخ بعد شيخ ، وكلاهما كأنه جدار آيل للسقوط ، أو
عفريت محقة النجم نقرها بطاً ؟ لقد تكاثر الغش حتى صار فى الأمم .
فغضب الشيخ الثانى وقال للدلال : يومك أنحس من وجهك ، إذ
جئتنا بجارية سفيهة ؛ ثم لطمه على وجهه وتركه إلى دكانه .

فقال لها الدلال : ما رأيت أشأم من يومك ، فقد ضيعت فيه رزقى
وزقك ، يذاء لسانك ، وقلة حيائك . ثم قابله تاجر يسمى شهاب الدين
وزاد ثمنها عشرة دنانير ، فشاورها الدلال فى ذلك ، فقالت : حتى أراه
وأسأله عن شىء فى بيته

فقال للتاجر : لقد عرفت ما فعلته بالتجار من قبلك ، وقد شاورتها
فقالت : أرنيه حتى أسأله عن شىء فى بيته ، وأخشى أن تقابلها فتسمع
منها ما لا تحب ، ترجع على بالعتب واللوم ، فإن أذنت لى أحضرتها
إليك ، ولا خرج على بعد ذلك .

فقال : أَحْضِرْهَا وَلَا لَوْمَ عَلَيْكَ .

فلما حضرت قالت :

يَا سَيِّدِي شهاب الدين ، هل في بيتك قِطْعٌ من فَرَشٍ مُسْتَدِيرَةٍ ،
وَمَحْشُوءَةٍ يَقْطَعُ مِنْ فَرَوِ السَّنَجَابِ ؟

فقال : نعم ، عندي منها عَشْرٌ ، وماذا تصنعين بها ؟

فقالت : أضعها بعد أن ترقد على فِئكِ وَأَتَقَكِ حَتَّى تَمُوتَ .

ثم التفتت إلى الدلالِ قائلة : يَظْهَرُ لِي أَنَّكَ دَلَالٌ خَائِبٌ ، إِذْ
عَرَضْتَنِي بَعْدَ الشَّيْخَيْنِ عَلَى رَجُلٍ بِهِ ثَلَاثَةُ عَيُوبٍ : قِصْرُهُ ، وَكِبَرُ أَنْفِهِ ،
وَطُولُ لَحْيَتِهِ .

فلما سمع شهاب الدين هذا قال للدلال :

لَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَأْتِيَنَا بِمِثْلِ هَذِهِ الْجَارِيَةِ ، الَّتِي لَمْ يَسْلَمْ تَاجِرٌ مِنْ بَذَاءِ
لِسَانِهَا ، وَقِسَاوَةِ لَفْظِهَا .

فَأَخَذَهَا الدَّلَالُ فِي يَدِهِ وَانْصَرَفَ وَهُوَ يَقُولُ : مَاذَا جَنَيْتُ يَا رَبِّ
حَتَّى تَكُونَ هَذِهِ الْجَارِيَةُ مِنْ حَظِّي هَذَا الْيَوْمَ ، فَتَفْضَحَنِي بَيْنَ التَّجَارِ ،
وَتَقْفِلَ فِي وَجْهِ بَابِ رِزْقِي ؟ ! !

ثم وَقَفَ بِهَا عَلَى تَاجِرٍ يُدْعَى عِلَاءَ الدِّينِ ، لَهُ جَوَارٍ وَغُلَامَانٌ ،
فَاسْتَشَارَهَا فِيهِ فَقَالَتْ : إِنَّهُ أَحَدَبُ .

فَعَرَضَهَا عَلَى تَاجِرٍ آخَرَ وَاسْتَشَارَهَا ، فَقَالَتْ : إِنَّهُ أَعْمَشُ .

فَشَى بِهَا قَلِيلًا ثُمَّ سَأَلَتْهُ : إِلَى أَيْنَ نَذْهَبُ ؟

فقال : إلى سيدك الأعجمي ، وكفى ما جرى لي بسببك ؛ فاعتمدت
 هي على نفسها في البحث عن سيد يليقُ بها ، وجعلت تلتفتُ يمنةً
 وسرةً حتى وقعَ نظرُها على نور الدين المصري ، فوجدته شاباً في روثق
 الشباب ، رَشِيقَ القدِّ ، وضئءِ الوجه ، كحيل العين ، ضاحك الثغر ،
 فشغفتُ به حباً ، وقالت للدلال :

أَلَمْ يَزِدْ ذلك التاجرُ في ثمنِي شيئاً ؟ وأشارت إليه .

فقال الدلال : ذلك شابٌ غريبٌ أبوه من أكابر تجار مصر ،
 جاء إلى الإسكندرية منذُ مُدَّةٍ قصيرة ، ولم يتكلم في ثمنك بنقصٍ
 ولا زيادة .

فزعتُ الجارية من إصْبَعِها خاتَمَ ياقوتٍ ، وناولتهُ إلى الدلال
 وقالت : هذا الخاتمُ لك إن اشترايتُ هذا الشاب ، نظيرَ تعبِكَ معي هذا
 اليوم ، فاجمعي به ، فلمَّا يرغَبُ في شرائي ، فلما كانت بينَ يديه رأته
 جميلاً وديعاً ، فتقدَّمتُ إليه وقالت باللهِ ياسيدي أما تراني جاريةً مليحةً ؟
 فقال : ما رأيتُ أجمل منك !

فقالت : ولكنك لم تزد في ثمنِي شيئاً مع التجار ، وكأنني لم أعجبك .
 فقال : ليتك كنتِ بمصرَ بلدي ، ولو كنَّا هُناكَ لاشتريتكِ بجميعِ
 ما أملكهُ من المال .

فقالت : ما أردتُ أن تشتريني الآن على غير رغبةٍ منك ، ولكنك
 لو زدت في ثمنِي ديناراً واحداً لجبرتُ خاطري ، ورفعتَ قيمتي ، لأن

الناس يقولون حينئذٍ ، لولا أن هذه الجارية مليحة لما تقدمَ لشرائها هذا الشاب المصري ، لأن أهل مصر معروفون بأن لهم خبرةً بالجوارى الحسان . فاستحيا نور الدين وأراد أن يصنعَ فيها هذا المعروف ابتغاء وجه الله ، والتفت إلى الدلال سائلا : كم بلغَ ثمنُ هذه الجارية ؟

فقال : بلغَ ثمنُها تسعمائة وخمسين ديناراً غير الدلالة ، وأما رسومُ السلطان فإنها على البائع .

فقال نور الدين : اشتريتها بألف دينار ، دلالة وثمان .

فقلت الجارية على الفور : بعتُ نفسى لهذا الشاب بألف دينار . فسكتَ نور الدين ، وظهرت على وجهه أمارَةُ الحيرة .

فقال أحد الجالسين : يستأهل .

وقال آخر : لعله يصغرُ ويغدير .

وقال ثالث : ملعونُ ابنِ ملعون من يزيد الثمن ولا يشتري .

وقال رابع : إنه مصري ولا بدَّ أنه يعرفُ قيمتها .

وقال خامس : والله إنَّ كلاً منهما يصلحُ للآخر ، ولعلَّ الخيرَ في الواقع

وأحضر الدلال في الحال القاضى والشهود ، وكتبوا عقدَ البيع ، وناولوه الجارية والعقد ، وقال : إنها لا تصلحُ إلا لك ، ولا تصلحُ أنت إلا لها ، فلم يجدْ بُدّاً من تنفيذ البيع ، وأحضر للدلال الألف الدينار التى كانت وديعةً له عند التاجر صاحب والده ، وسارَ بالجارية إلى البيتِ

الذى أسكنه فيه صاحبُ والده ، فوجدتُ فيه أثاثًا قديمًا عتيقًا ، فسألته :
أهذا بيتك وأثاثك ؟

فأجابها : إني غريب ، وبلدتي مصر ، وهذا بيتُ تاجر صديق أبي ،
أسكنني فيه مدة إقامتي بهذه المدينة .

فقلت : أقلُّ بيتٍ يكفيني حتى ترجعَ سالمًا إلى بلدك وأهلك ،
وعليك أن تُحضرَ لنا شيئًا من اللحم المشوى والنُّقل والفاكهة .

فقال نور الدين : وكيفَ الحالُ ؟ وكيفَ أستطيعُ إحضارَ شيءٍ ، ولم
يكنْ معي من المال غيرُ ألفِ الدينار التي دفعتموها ثمنًا لك ، فأصبحتُ
لا أملكُ قليلًا ولا كثيرًا ؟

فقلت : أليسَ في المدينةِ صديقٌ يُقرضُك خمسينَ درهمًا تأتينى بها ،
لأشيرَ عليك بما تُريدُه منها ؟ !

فقال : ليسَ لي هنا سوى ذلك التاجر صديق والدي ، وإني ذاهبٌ
إليه أسأله أن يُقرضَنيها .

ولما كان نور الدين عند التاجر سألَه عما فعله بالآلفِ الدينار ، فقال :
اشتريتُ بها جارية .

فقال : ومن أوقعك في هذه الورطة ؛ جارية بألفِ دينار ؟ ! ومن
تكونُ هذه الجارية ؟ !

فقال : نور الدين : جارية من بنات الإفرنج .

فقال : أغلى جارية من بنات الإفرنج هنا بمائةِ دينار ، فكيف

تَشْتَرِيهَا بِأَلْفٍ ؟ ! إِنْ كُنْتَ يَا وَلَدِي قَدْ أَحْبَبْتَهَا فَهِيَ فِي يَدِكَ حَتَّى تَطْمَئِنَّ إِلَى مَشُورَتِي ، وَلَكَ أَنْ تَبِيعَهَا بِأَيِّ ثَمَنِ وَلَوْ خَسِرْتَ فِيهَا مَائَتِي دِينَار .

فَقَالَ نَوْرُ الدِّينِ : تِلْكَ إِرَادَةُ اللَّهِ ، وَسَأَجْعَلُ نَصِيحَكَ مَوْضِعَ اهْتِمَامِي ، وَإِنِّي الْآنَ فِي حَاجَةٍ إِلَى خَمْسِينَ دِرْهَمًا أَنْفَقْتُ مِنْهَا إِلَى غَدٍ حَتَّى أُبِيعَ الْجَارِيَةَ أَوْ يُسَهِّلَ اللَّهُ لِي سَبِيلًا أَرْزُقُ مِنْهُ .

فَقَالَ التَّاجِرُ : خُذِ الْخَمْسِينَ دِرْهَمًا ، وَإِنِّي عَلَى اسْتِعْدَادٍ أَنْ أَمُدَّكَ بِالْمَالِ مَرَّتَيْنِ وَثَلَاثًا إِلَى عَشْرِ ، وَبَعْدَهَا لَا أُعْطِيكَ شَيْئًا ، وَلَا أَرُدُّ عَلَيْكَ سَلَامًا ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا فِي الْقَطِيعَةِ بَيْنِي وَبَيْنَ أَيْبِكَ ، فَاجْتَهِدْ أَلَّا تَكُونَ سَبَبًا فِي افْتِرَاقِنَا ، وَقَطِّعْ حَبْلَ الصَّدَاقَةِ بَيْنِي وَبَيْنَ وَالِدِكَ .

وَدَخَلَ عَلَى جَارِيَتِهِ وَفِي يَدَيْهِ الْخَمْسُونَ دِرْهَمًا ، وَأَخْبَرَهَا بِمَا حَصَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّاجِرِ ، فَقَالَتْ لَهُ : اذْهَبْ إِلَى السُّوقِ وَاشْتَرِ حَرِيرًا ذَا أَلْوَانٍ خَمْسَةٍ بِعَشْرِينَ دِرْهَمًا ، وَخُبْزًا وَلَحْمًا وَفَاكَةً وَمَاءً وَرَدِّ ثَلَاثِينَ دِرْهَمًا ،

فَخَرَجَ إِلَى السُّوقِ وَأَحْضَرَ لَهَا مَا أَمَرَتْ بِهِ ، فَقَامَتْ لِسَاعَتِهَا ، فَجَهَّزَتِ الطَّعَامَ ، وَأَكَلَا وَشَرَبَا ، ثُمَّ ذَهَبَ هُوَ إِلَى فِرَاشِهِ وَنَامَ ؛ أَمَّا الْجَارِيَةُ فَإِنَّهَا صَنَعَتْ مِنَ الْحَرِيرِ زُنَّارًا بَدِيعَ الشَّكْلِ جَمِيلَ الصَّنْعِ ، ثُمَّ وَضَعَتْهُ تَحْتَ الْمَخْدَةِ وَنَامَتْ . وَفِي الصَّبَاحِ صَلَّيَا وَأَكَلَا ، ثُمَّ مَدَّتْ يَدَهَا تَحْتَ الْمَخْدَةِ وَأَخْرَجَتْ الزُّنَّارَ ، وَقَالَتْ لِسَيِّدِهَا : بِعُهُ فِي السُّوقِ وَلَا تَفْرِطْ فِيهِ إِلَّا بِعَشْرِينَ دِينَارًا .

فسألها : ومن أين جاءكِ هذا الزنار ؟

فقلتُ : صنعتُهُ بيدي وأنتِ نائمٌ ، من الحريرِ الذي اشتريته .

فقال : حريرٌ بعشرين درهما يُعملُ منه في ليلةٍ واحدةٍ شيءٌ يُباعُ بعشرين ديناراً ؟ !

فقلت : أنتَ لا تعرفُ قيمته ، فاجعل الدلالَ يقومُ ببيعه ، ولا تبع إلا إذا كان الثمن عشرين ديناراً .

خرج نور الدين إلى السوق وقابل الدلال وأعطاه الزنار ، وأمره ألا يبيعه بأقل من عشرين ديناراً ، على أن يدفع المشتري أيضاً سمسة الدلال .

أخذ الدلال الزنار ، وعرضه في السوق ، وبعد ساعة حضر إلى نور الدين وقال : قم لتأخذ ثمن الزنار ، عشرين ديناراً ؛ ففرح وقام بين مُصدّقٍ ومكذب .

فأما أخذها عجب غاية العجب ، واشترى بها جميعها حريراً ليُعملَ منه زنابير ، ثم رجع إليها وناولها الحرير ، وقال : اصنعي منه زنابير ، وعاميني صنعا ، فإنني ما رأيتُ أخفَ منها صنعة ، وأعظمَ ربحاً ؛ فضحكت الجارية وقالت : اذهبْ إلى صاحب أبيك واقترضْ منه ثلاثين درهما ، وأحضرْ بها طعاماً كما فعلتَ بالأمس ، وبلغه أنك ستُرُدُّ إليه الثمانين درهما غداً ؛ ففعلَ وأحضرَ إليها اللحم والخبزَ والنقلَ والفاكهة ، فأعدت من ذلك مائدةً فاخرة .

ولما جاء الليلُ ونام ، قامت الجاريةُ إلى حريرها فصنعتُ زناراً ، ثم نامتُ ، وفي الصباحِ ناوَلتُهُ الزنارَ على أن يبيعه في السُّوق بعشرين ديناراً ، فباعه وأعطى صاحبَ أبيه الثمانين درهماً كما وعده ، وشكر له فضله وحسنَ معونته . فسأله التاجرُ : هلُ بعتَ الجاريةَ ؟

فقال : وكيفَ يبيعُ المرءُ روحه ؟!!

فقال : ومن أين جاءتك الدراهم ؟

فحكى له كل شيء ، فقرح التاجرُ وقال : الحمد لله الذي كتب لك الخير ، ورزقك من حيثُ لا تحسب ، واعتقدُ يا بُنى أنكَ في خيرٍ دائماً ، ما دمتَ نقي السريرة ، مخلصاً لله في عملك ؛ ثم ودَّعه وذهبَ فاشتري الطعامَ له ولجاريته حسبَ عادته ، ورجعَ إلى بيته .

ولم يزل على هذه الحال ، من صُنِع الزنانير كُلِّ ليلةٍ وبيعها ، وادخار ما بقي من ثمنها سنة كاملة ، وفي ذات يومٍ أمرته أن يشتريَ لها حريراً ، من ستة ألوان ، فأحضَرهُ وضنعتُ له منديلاً وضَعُهُ على كتفه ، ومشى به في السوق فنالَ إعجابَ التجار والأعيان .

(٣)

وفي ليلةٍ من الليالي استيقظ نور الدين على بكاء جاريته ، فسألها : ما بالك تبكين ؟

فقلت : فراقُ أحسَّه قلبي فبكيتُ من ألمه .

فقال : وما الذى يفرّقُ بيننا وقد أصبحتِ روحى ونورَ عيني ؟ !
 فقالت : وأنت حياتى ، ولكن حسن الظنّ بالأيام من أسباب
 الحسرة والآلام .

ثم قالت : يا سيدى نور الدين ؛ إن كنت حريصاً على عدم افتراقنا
 نخذ حذرَكَ من رجلٍ أعجمى إفرنجى ، بعينه اليمنى عَوْر ، وبرجله اليسرى
 عَرَج مُغيرٌ الوجه ، كُثيف اللحية ، فلن يكون سبباً فى افتراقنا أحداً
 غيره ، وقد رأيتُه فى هذه المدينة ، وأعتقد أنه ما جاء إليها إلّا فى طلبى .
 فقال لها : لا تخافى ، فإنّ رأيتُه قتلته .

فقالت له الجارية — وكانت تسمّى مريم الزنارية — : ابتعدْ عنه ،
 فلا تقتله ، ولا تُكلمه ، ولا تبايعه ، ولا تعامله ، ولا تجالسّه ، ولا تُماشه ،
 واقطع صلّتك به ، ولا تجعلْ له سبيلاً إليك ، وادعُ الله أنْ يكفينَا
 شره ومكره .

وفى الصباح أخذ نور الدين الزنار وذهب إلى السوق ، فجلسَ على
 مصطبةٍ يتحدثُ هو وأبناء التجار ، فأخذته سنةٌ من النوم ، فتركهُ أبناء
 التجار ناعماً ، فر به الرجلُ الأعجمى الأعورُ الأعرجُ ، الذى تخشاه جاريته
 مريمُ ، والذى حذّرتُه أن يتصلَ به .

وجلس الأعجمى بجانبه ، وجعل يقلبُ فى أطراف منديله الذى كان
 قد وضعه على وجهه ، فأحسَّ نور الدين واستيقظ ، فرأى ذلك الأعجمى
 الذى وصفته مريم ، فصرخ فى وجهه صرخةً عاليةً ، اهتز لها بدنه ، فقال :

لَمْ تصرخ في وجهي ، فهل فعلتُ شيئاً تكرهه أو تنكره ؟ !
فقال نور الدين : يا ملعون ، لو فعلت شيئاً من هذا لذهبتُ بك
إلى الوالى .

فقال الأعجمي : يا فتى ، بحق دينك وعقيدتك ، أخبرني ؛ من أين لك
هذا المنديل ؟

فقال نور الدين : إنه من صنع والدتي .

فقال : أتبيعه لى ؟ !

فقال نور الدين يا ملعون ، لا أبيعُ هذا المنديل لك ولا لغيرك ، لأنها
عماته لى ، ولم تصنعُ غيره ، فقال الأعجمي : إن بعته لى دفعتُ ثمنه خمسمائة
دينار لك الآن ، وبعد ذلك تصنعُ هي لك منديلا غيره أحسن منه .

فقال نور الدين : ذلك منديل لا نظير له فى المدينة ولن أبيعَه أبداً .

فقال الأعجمي : أشتريه منك بستمائة دينار من الذهب الخالص

ولكن نور الدين لم يرضَ أن يبيعه ، فجعل الأعجمي يزيد فى ثمنه
حتى كان ألف دينار ؛ وكان قد حضر جماعة من التجار ، وسمعوا هذا كله ،
فقالوا : نحنُ بعناك هذا المنديل فادفع ثمنه فوراً ؛ فأبى نور الدين أن يبيعه ،
فقال عليه أحد التجار وأسرَّ إليه .

إن هذا المنديل قيمته على الأكثر دينار ، وهذا الأعجمي يدفعُ فيه
ألف دينار ، فكيفَ لا ترضى وربحك فيه يزيد على تسعمائة دينار ؟ !
إن الحزم يقضى أن تبيعه ، وتجهل من صنعه لك يصنع غيره ، ويبقى

لك الريح الوفيرُ ينفعك ويعينك على حوادث الأيام .

ففرته كثرةُ الربح ، وباعَ المتدبلَ ، وأخذ الألف الدينار .

ثم هم أن يرجعَ إلى جاريته ليبشرها بما حصل عليه من ربح عظيم ، فقال الأعجمي : احجزوا نور الدين فأتم وهو ضيوف هذه الليلة ، لأن عندى خروفاً سميناً ، وتقلًا ، وفاكهة كثيرة ، وأحبُّ أن يأتنس بكم منزلى هذه الليلة ، فلا يتأخر منكم أحد .

فألح التجارُ على نور الدين أن يبقى معهم ، وحلفوا عليه ألا يفارقهم تلك الليلة ، وقاموا لساعتهم فأقفلوا دكاكينهم وأخذوا نور الدين معهم إلى قاعة الأعجمي الذي صحبهم ، وكانت نظيفةً مطيَّبةً ، ذات إيوانين ؛ فجلسوا على كراسيها المصفوفة ، وأمامهم سفرةٌ عجيبية الشكل ، غريبة الصنع ، نالت إعجابهم ، ثم وُضعَ عليها أوانٍ من البلور والصيني ، مملوءةٌ بأصناف النقل والفاكهة ، ثم جعل يشوى من لحم الخروف ويضع على السفرة أمامهم ، وهم يأكلون ، وظل يقدم لهم من النقل والفاكهة حتى أتمهم ؛ ثم هيا لهم جميعاً مجلس غناء جميل قضوا فيه الليل إلا أقله ، وأحس الرجل الأعجمي أن نور الدين بدأ يخف تعلقه بجاريته مريم على غير رغبة منه ، فعرض عليه أن يشتريها ، فنفر نور الدين ، فما زال به الرجل يغريه ، والتجار يعاونونه في الإغراء ، وتقرب منه الأعجمي ولاطفه وصرف الحديث عن هذا الموضوع قليلا ، ثم عاد إليه ، وجلس بجواره وقال :

هل تبيعنى جاريته التى اشتريتها بألف دينارٍ منذ سنة ، وسأدفع لك

ثمّنها خمسة آلاف دينار ، فأبى نور الدين أن يبيعها ؛ فجعل الأعجميُّ يزيد في ثمنها حتى بلغ عشرة آلاف دينار .

فقال نور الدين بعد أن ضاق بالأعجمي والتجار : بِعْتُكُهَا بعشرة آلاف دينار .

ففرح الأعجمي وأشهد عليه التجار ، وباتوا فرحين .

وفي الصباح أمر الأعجمي غلمانه أن يُحضروا له عشرة آلاف دينار فأحضروها ، ثم قال يا نور الدين خُذ العشرة آلاف دينار ثمن جاريّتك التي بعته إلى الليلة الماضية أمام هؤلاء التجار .

فقال نور الدين وقد أفاق من تعبته : يا ملعون ، ما بعته شيئاً ، وأنت تكذب عليّ الآن .

فقال الأعجمي : كيف تكذبني وهؤلاء شهود على صدقي فيما أقول ؟ فقال التجار : يا نور الدين ، لقد بعته جاريّتك الليلة الماضية أمامنا بعشرة آلاف دينار ، ونحنُ شهودٌ بذلك عليك ، فخذ ثمنها ولا تطرُدْ نعمة ربّك ، أتكره أن تشتري جاريةً بألف دينار ، ثم تبيع في ثمنها تسعة آلاف دينار ؟ ! إن كانت جميلة في نظرك فغيرها أجل منها ، والذي خلقها خلق غيرَها ، ومَعك ربحٌ عظيم تستطيع أن تشتري به مَنْ تشاء من الجوارى ، أو تتزوج منه بإحدى بناتنا ، وتتخذ بقية الربح رأسَ مالٍ لتجارةٍ تنال منها ربحاً وفيراً ، ورزقاً واسعاً ، وما زالوا يرغبونه في إتمام البيع حتى رضي ، وحضر القاضي وكتب عقد البيع وتسلم الثمن .

(٤)

أما مريم الزنارية فقد لبثت تنتظر نور الدين فلم يعد ، ولما انتصف الليل ولا يزال غائباً جعلت تبكي بكاءً مُرّاً ، فأحسَّ التاجر صاحب أبيه منها هذا البكاء ، وأرسل إليها زوجته لتسألها عما يبكيها ، فقالت : تأخر سيدي نور الدين إلى هذا الوقت ، وأخافُ أن يكون أحدٌ قد دبرَ له مكيده حبسته عني ، أو جعلته يبيعني ، وتأخر من أجل ذلك عن العودة إلى يته .

فقالت : إنا نعلمُ أن سيّدك لن يبيعك بلاء هذه القاعة ذهباً ، وربما أتى إليه جماعة من عند والده بمصر ، فأحبُّ أن يكرمهم في المكان الذي نزلوا فيه ، ولم يشأ أن يحى بهم إلى هذا البيت لأنه يحبُّ أن يبقى أمرُك خفياً ، أو لأن البيت لا يليق بهم ، ففضل أن يلبث معهم تلك الليلة ، وفي الصباح سيكون عندك إن شاء الله تعالى فلا تحزني وسأيت معك هذه الليلة ، لأزيل عنك هذا الهم حتى يجضر سيّدك وتفرّح ببقائه . وفي الصباح رأت مريم سيدها نور الدين قادماً في الزقاق ومعه الأعجمي وجماعة من التجار ، فاقشعرَّ بدنُها ، واصفرَّ لونها ؛ فسألتها زوجة التاجر عما طرأ عليها ، فقالت : صدق ظني وسأتجرعُ ألم الفراق ، أما قلتُ لك يا سيدتي : إن سيدي قد خُدعَ وباعني ؟ ! وإني لا أشكُ الآن في أنه باعني إلى هذا الأعجمي الذي كثيراً ما حذرته منه ، ولكن لا يمنع حذرُ من قدر .

فلما دخل عليها سيدها نور الدين ، اغبرَّ وجهه من الحزن ، وضاق صدره من الألم ؛ واغرَّورقت عيناه بالدموع لقرب الفراق .
فقال له مريم : كأنك بعثني الليلة يا سيدي !!
فتنفس الصعداء وقال : هي المقادير لا يُغنى فيها حذر ، وإن كنت أخطأتُ فما أخطأَ القدر .

واعتذر نور الدين للجارية وقال : تلك خديعةٌ أحكم تديرُها فوقعتُ فيها ، وأرجو من الله الذي قضى علينا بالفراق ، أن يمن علينا عاجلاً بالتلاق ، فهو القاهرُ القادرُ ، وهو الذي يتولى الصابرين .
وتقدم الأعجمي إلى الجارية يُقبلُ يدها ، فلطمته بكفها على وجهه ، وقالت :

ابتعد عني يا ملعون ، فما زلت تجدّ في طلبى ، حتى خدعت سيدي ، ولكن إن شاء الله لن يكون إلا كلُّ خير .
فضحك الأعجمي ضحكة صفراء ، وقال : لا ذنب لى فى هذا ، فسيذك هو الذى باعك راضياً مختاراً ، ولو أنه يُحبُّك ما فرط فيك ، ولكن قلبه خلا من حبك فباعك .

(٥)

وكانت مريم الزنارية هذه بنت ملك مدينة من مدائن « الإفرنج » ، وكانت مدينة ممتدة الأطراف ، واسعة النواحي ، كثيرة المصانع ، عامرة

بالسكان ؛ تشبه مدينة القُسْطَنْطِينِيَّة ، ولخروجها من مدينة أبيها حديثٌ عجيبٌ نسوقهُ إليك :

اهتمَّ أبوها وأُمها بتربيتها تربيةً كاملةً ، فتعلمت الكتابة والحساب ، والفصاحة في القول ، والفُروسية والشجاعة ، وكثيراً من الصناعات : مثل الزركشة ، والخياطة ، والحياكة ، وصناعة الزناير ، ورعى الذهب على الفضة ، ورعى الفضة على الذهب ؛ ومنحتْ إلى ذلك الجمال الرائع ، والحسن الذي لا نظيرَ له ؛ فكانت فريدةً عصرِها ، واعتزَّ بها أبوها وأُمها ، حتى أن أباهما لم يرض أن تفارقه ، فأبى أن يزوجهما ، على الرغم من كثرة الطالبين لها من ملوكٍ وغيرهم من العظماء ، ولم يكنْ له بنتٌ غيرها ، وإنْ كان عنده أبناء ذكور كثيرون .

مرِضَتْ ذات مرة مرضاً أشرف بها على الموت ، فنذرتْ إنْ هي شُفيتْ أن تزور الدَّير في الجزيرة ، وهو ديرٌ معظمٌ عندهم ، يتبركون بزيارته ، وينذرون له النذور .

ولما عوفيتْ من مرضها هذا فرِح أبوها ، وسهل لها سبيل الوفاء بنذرها ، وزيارتها ذلك الدَّير في الجزيرة ، فأرسلها في مَرَكَبٍ ومعها جماعةٌ من بنات الأعيان وكبراء المدينة .

وكان في البحر مراكبٌ للمسلمين فوق مَرَكَبُ مريمَ أسيراً لأحد مراكب هؤلاء المسلمين ، وسيقَ بمن فيه إلى القَيْرَوَان ، وهناك بيعت البناتُ ، واشترى مريمَ تاجرٌ أعجميٌ من التجار ، وكان طاعناً في السن ،

فَاتَّخَذَهَا حَادِمَةً لَهُ ، وَاتَّفَقَ أَنْ مَرِضَ هَذَا التَّاجِرُ مَرَضًا خَطِيرًا
كَادَ يَقْضِي عَلَيْهِ ، وَطَالَتْ مَدَّتُهُ ، وَأَخْلَصَتْ مَرِيْمٌ فِي خِدْمَتِهِ مَدَّةَ مَرَضِهِ
حَتَّى شَفَاهُ اللَّهُ ، وَأَحَبَّ أَنْ يُكَافِئَهَا عَلَى خِدْمَتِهَا ، وَعَظَّفَهَا عَلَيْهِ فِي أَثْنَاءِ
مَرَضِهِ ، فَطَلَبَ مِنْهَا أَنْ تَقْتَرِحَ مَا تَشَاءُ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَكَافَأَةِ ، فَقَالَتْ : لَا أُرِيدُ
شَيْئًا إِلَّا أَنْتَ لَا تَبِيْعُنِي إِلَّا لِمَنْ أُرِيدُهُ وَأَخْتَارُهُ .

فَقَالَ : لَكَ ذَلِكَ ، وَقَدْ جَعَلْتُ أَمْرَ بَيْعِكَ بِيَدِكَ ، فَقَرَحْتَ لَذَلِكَ فَرَحًا
عَظِيمًا ؛ وَكَانَ هَذَا الْأَعْجَمِيُّ قَدْ عَرَضَ عَلَيْهَا الْإِسْلَامَ فَأَسْلَمَتْ ، وَعَلَّمَهَا
الْفَقْهَ ، وَحَفَّظَهَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ وَكَثِيرًا مِنْ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ ،
وَلَمَّا جَاءَ بِهَا إِلَى مَدِينَةِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ بَاعَهَا عَلَى النُّحُو الَّذِي قَرَأَتْهُ إِلَى
نُورِ الدِّينِ .

أَمَّا أَبُوهَا فَلَمَّا بَلَغَهُ مَا حَلَّ بِهَا وَعَنْ كُنْ مَعَهَا مِنْ بَنَاتِ الْأَعْيَانِ ،
أَرْسَلَ فِي طَلَبِهَا أَشَدَّ وَزَرَائِهِ مَكْرًا ، وَأَعْظَمَهُمْ حِيلَةً ، وَأَحْكَمَهُمْ تَدْيِيرًا ،
وَأَقْسَامَ شِدَّةٍ وَعَنْفًا ، وَهُوَ ذَلِكَ الْوَزِيرُ الْأَعْرَجُ الْأَعْوَرُ ، فَأَخَذَ يَبْحَثُ
عَنْهَا فِي جَزَائِرِ الْبَحْرِ جَزِيرَةً بَعْدَ جَزِيرَةٍ ، حَتَّى انْتَهَى بِهِ الْمَطَافُ إِلَى
مَدِينَةِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، وَكَانَ مَا كَانَ مِنْ احْتِيَالِهِ وَمَكْرِهِ ، حَتَّى اشْتَرَاهَا
مِنْ نُورِ الدِّينِ وَأَصْبَحَتْ فِي يَدِهِ ؛ وَلَمَّا رَأَاهَا حَزِينَةً بَاكِئَةً قَالَ لَهَا :
لَا يَنْفَعُكَ هَذَا الْحُزْنُ ؛ وَلَا أَنْتِ مُسْتَفِيدَةٌ شَيْئًا مِنْ هَذَا الْبُكَاءِ ، وَمَنْ
الْخَيْرُ لَكَ أَنْ تَقْوِي مَعِيَ إِلَى مَدِينَةِ أَيْيِكَ ، مُسَقِّطٍ رَأْسِكَ ، وَمَشْرِقٍ
عِزِّكَ ، وَدَارٍ مُلْكِكَ ، وَمَحَلٍّ نَعِيمِكَ وَهَنَاءِكَ ، وَخَلَّى عَنْكَ هَذِهِ الْفُرْبَةَ

وهذه المهانة ، وكفاني ما لاقيته من عناء السفر وتعبه في البحث عنك قرابة سنة ونصف سنة ، وقد أمرني والدك أن أشتريك ولو بلغ ثمنك ملء مركب ذهباً ، ولم يزل يسترضيها وهي تأتي عليه ، ويشدد غضبها في وجهه ، حتى قالت له :

إن أملى في الله عظيم ألا يأتاك في أمته ما تريد .

ثم همت لتقوم معه معتمدة على ربها ، مُسَلِّمة إليه وجهها ، راجية منه أن يبلغها هي مُرادها ، وتقدم إليها غلمان الوزير ببغلة عليها سرج مُزركش ، وأركبوها تلك البغلة ، وحملوا فوق رأسها مظلة غطاؤها من حرير ، وقوائعها من ذهب وفضة ، ومشوا بها حتى أنزلوها في قارب صغير ، سَبَّحُوا به فوق الماء حتى وصلوا إلى مركب كبير كان في انتظارهم ، فلما ركبوه أمر الوزير ربانه أن يُقلع بهم في عرض البحر إلى مدينة أبيها ، واستمرت مريم شاخصة في حزن وبكاء إلى مدينة الإسكندرية حتى غابت واختفت .

(٦)

صاقت الدنيا على سعتها في وجه نور الدين بعد سفر مريم ، ودخل قاعته التي كان مقيماً بها ، فرأى عُدَّة مريم التي كانت تصنع بها الزناير ، ورأى ثيابها ؛ فضمَّها إلى صدره وبكى ، ثم نهض مُسرِعاً ، وخرج يجرى إلى البحر الذي سافرت فيه ، فنظر إليه متأملاً باكياً ، وقال :

يا مريم ؛ أكانت رؤيتي لك مناماً أم أضغاث أحلام ؟ !
 فطلع شيخٌ عليه من مركبه ، وقال :
 يا بُنى ، كأنك تبكى الجارية التى سافرت البارحة مع الإفرنجى
 الأعور الأعرج ؟ !

فقال : نعم يا سيدى ، ولا بلغه الله فيها مراده .
 ووجدته الشيخُ فتىً وضىء الوجه ، جميل الخلق ، فصيحاً رقيق
 العواطف ، مشتمت الفكر ، حزين القلب ؛ فرّق الشيخُ لحالة ، وعزم على
 أن يساعده ، وكان رئيس مركب مسافرٍ إلى مدينة أبى مريم التى سافرتُ
 إليها ، وفيه مائةٌ من تجار المسلمين ، فقال له : لا تحزن يا بُنى ، واصبرْ
 صبراً جميلاً ، فإنى موصلُك على مركبي هذا إلى من تحبُّ وتهوى .
 فقال نور الدين : أكرمك الله وأعانك ، ومتى تسافرُ ؟
 فقال : بعد ثلاثة أيام .

ففرح نور الدين : وتوجه إلى سوق المدينة ؛ فأحضر ما يحتاجُ إليه
 من زادٍ مدة سفره ؛ وسأله الشيخُ :
 ما هذا الذى جئت به من السوق ؟
 فقال : زادى وما أحتاجُ إليه فى سفرى .

فضحك وقال : هل أنت ذاهبٌ إلى عمود السّوارى بالمدينة ؟ إن
 بينك وبين المدينة التى تقصدها مسيرة شهرين إذا طابت الرياحُ وصلاح
 الجوُّ ، فأخذ منه بعض النقود ، وذهب إلى السوق ، فأحضر له ما يكفيه



من الزَّادِ مُدَّةَ سفره، وبعد ثلاثة أيام أُلْقِيَ بهم المركب، ولبثوا مسافرين واحداً وخمسين يوماً، ثم طلع عليهم قُرْصَانُ البحرِ من الإفرنج، فأَسْرُوا المركبَ ومن فيه، وذهبوا به إلى مَلِكِ المدينة، والدِّمْرِيَمِ الزنارية، فأَمَرَ الملكُ بحبسهم جميعهم وفيهم نور الدين، وكان الوقت الذي ذهب فيه هؤلاء الأَسْرَى إلى السجن هو الوقت الذي وصل فيه المركب الذي به مريم الزنارية ابنة الملك.

بلغ الملك نبأ وصول ابنته، فنهض فرحاً مسرعاً يجنوده وحاشيته إلى الساحل لاستقبالها، وذاع الخبرُ في المدينة فلبست زينتها، وانتشرت أفرأحها، وطبَّقَ أجواءها أصوات الطبول والمزامير فرحاً بقدوم مريم، وهناك على الساحل قابل الملك ابنته، وضَمَّها إلى صدره وقَبَّلَهَا، ثم أركبها جواداً مُطَهَّمًا، وسار بها في حَفْلٍ رائع إلى قصره، حيث قابلتها أمُّها في فريج وشوقٍ عظيمين، وكانت أمُّها مُتلهفةً على معرفة حال ابنتها، فسألتها عنها فقالت :

لقد هَدَّدَنِي بالضرب تاجرٌ اشتراني ثم باعني إلى آخر، وصرتُ أُنْقَلُ من تاجرٍ إلى تاجرٍ حتى أنقذني ربي.

وكنْتُ الآن بين يديك، فلا ترعجيني بالحديث في أيام أسري، ووضعي عليها غِطَاءَ الكتمان. فاغتاضت أمُّها وأخبرت في الحال

زوجها ، فمرضَ الأمر على رجال دولته ، فقالوا :

لقد عذبها من أسروها ، ولا يُثار لها إلا بضربِ مائة رقةٍ ممن
أسرناهم ، فأمر الملكُ في الحال بإحضار الأسرى المسجونين ، وفيهم نور الدين
وضرب أعناقهم بين يديه ؛ فجعلوا يضربون أعناقهم واحداً بعد واحدٍ ،
حتى لم يبق إلا نور الدين ، وبينما هم يتقدمون به لضرب عنقه إذ طلعَ
على الملك امرأة عجوز راهبة ، فقالت :

أيها الملك ، لقد كنت نذرت لكل كنيسة خمسةً من الأسرى إن
ردَّ الله عليك ابنتك مريم ، فهلاً وفيتَ بنذرك ؟

فقال : لم يبقَ عندي إلا واحدٌ منهم نخذه الآن ، وعند ما يقعُ
في أيدي أسرى غيرهم أبعثُ إليك بأربعةٍ منهم ، ولو عجّلت بالحمى قبل
أن أقتلهم لأعطيتك حاجتك منهم .

فشكرت العجوز للملكِ جميلَ عطفه على الكنيسة ، ودعتُ له
بدوام العزِّ والبقاء ، ثم تقدمتُ إلى نور الدين فوجدته شاباً فتياً جميلاً ؛
ففرحتُ به وأخذته معها إلى الكنيسة ، وهناك نزعْتُ عنه ثيابه ،
وأحضرتُ له جُبّةً سوداء من صوف ، ومزراً أسودَ وضَعْتُهُ على رأسهِ
على شكلِ العمامة ، وسَيَّرَا أسودَ شدتُ به وسطه ، وقالتُ له :

عليك بخدمة الكنيسة ؛ فكثُ في خدمتها سبعة أيام ، وبعدها أقبَلتُ
العجوزُ على نور الدين وأمرته أن يلبسَ ثيابه الحريرية ، وأعطته عشرة

دراهم ، وقالت : اخرج الآن من الكنيسة ، واذهب إلى المدينة ، وتمتع
بمناظرها ، وتعرف نواحيها .

فقال لها : يا أمي ، وماذا جرى ؟ !

فقالت العجوز : إن مريم بنت الملك تريد أن تزور الكنيسة هذه
الساعة ، وتقرب لها قرباناً ، لسلامتها من أيدي الذين أسروها ، ومعها
أربعمئة بنت من بنات الوزراء والكبراء ، وإذا وقع نظرهنّ عليك
قطّعنك بالسيوف .

فقال لها : سمعاً وطاعة ، وأخذ منها عشرة دراهم ، ولبس ثيابه ،
وخرج من الكنيسة إلى المدينة ، وجعل يتنقل فيها حتى عرف نواحيها
وشوارعها وطرقها ومخابئها وأبوابها ، ثم رجع إلى الكنيسة فوجد مريم
الزنازية بين البنات كأنها شمس الضحى ، فلم يطق صبراً وصرخ قائلاً : يا مريم ،
فذكرها هذا الصوت بنور الدين ، وحدّقت فيه يبصرها ، فأيقنت أنه
سيدّها نور الدين ، ولهذا صرفت عنه البنات اللاتي هجمن عليه يرذن
الاعتداء عليه ، وقالت لهن : على رسلكنّ ، لا تمسننه بضراً ، فإنه
محبون ، وعلامات الجنون بادية على وجهه ، ويزداد ظهورها شيئاً فشيئاً .
فلما سمع منها ذلك عرف مرادها فتصنع الجنون ، وكشف عن رأسه ،
وحلق بعينه ، ولوى شدقيه ، وأخرج الزبد من فيه ، واضطرب في
حركاته وسكناته ، فقالت مريم :

أما قلت لكنّ إنه مجنون وآثار الجنون تظهر فيه شيئاً فشيئاً ؟

فأحضره بين يدي ، وابتعدن عني حتى أستمع لكلامه — فإني أعرف لغة العرب — وحتى أتبين حاله ، وأعرف : هل يمكن أن يعالج من جنونه هذا أو لا .

فأطعن أمرها وأحضره أمامها ، وذهبن إلى نواحي الكنيسة ، بحيث لا يسمعن من حديثهما شيئاً .

قالت له مريم : ياسيدي وحيبي ، خاطرت بنفسك وتصنعت الجنون من أجل ؟ !

فقال : في سبيلك أفعل كل شيء مهما يكن أمره .

فقالت : أأنت الجاني على نفسك ؟ ! أما حذرتك هذا كله ؟ ! لقد رأيت الوزير الأعور الأعرج في الإسكندرية فحذرتك منه ، وقلت : إنه ما جاء إلا من أجل ، فلم تسمع لي قولاً .

فقال : أعوذ بالله من زلة العقل ، وخيبة السعي ، وضعف العزيمة .

وجلسا طويلاً يتلاومان ، ويشكوان حُرقة الهوى وقسوة الأيام ، وكانت مريم لابسة حلة خضراء مزركشة بالذهب والجوهر ، فظهرت فيها جميلةً رائعة الحسن ، فزاده ذلك هياماً بها ، وأسفاً على فراقها .

ثم تركته مختبئاً في مكانه وذهبت إلى البنات ، وكان النهار قد انقضى وجاء الليل ، فقالت لهن : هل أغلقت أبواب الكنيسة ؟ فقلن : نعم ، وأحكامنا إغلاقها .

فقالت : هيا بنا إلى مكان السيدة مريم العذراء ، وهو مكان بالكنيسة

يزعمون أن فيه سر مريم العذراء ، فذهبن إليه وتبركن به ، ثم جعلن
يظفن في أتمحاء الكنيسة ، وبعد أن فرغن من زيارتها قالت لهن مريم :
تنام كل واحدة حيثُ تشاء ، أما أنا فلا أزال في شوق إلى الكنيسة
لطول غيبتى عنها ، وأسرى في بلاد مصر .

وتوزعت البنات ، كل منهن أوتُ إلى ناحية رقدت فيها ، أما مريم
فإنها ذهبت إلى حيث نور الدين مختبئ ، فرأته في انتظارها على أحرّ
من الجمر ، وجلسا يتحادثان .

وبينا هما غارقان في فرحة التلاقي ، إذ بـغلام الكنيسة يضربُ ناقوسها
إيذاناً باقضاء الليل وإقامة شعائر الصباح .

فقالت مريم : كم يوماً لك هنا ؟

فقال : سبعة أيام .

فقالت : هل مشيت في المدينة وعرفت طرقها ومخابئها وأبوابها من

جهة البر والبحر ؟

قال : نعم ، عرفت كل شيء فيها .

فقالت : أتعرف صندوق النذر بالكنيسة ؟

قال : نعم .

فقالت : مادمت عرفت كل هذا فقد هان علينا الأمرُ ، فإذا مضى من

الليلة المقيمة ثلثها فاذهب إلى صندوق النذور وخذ منه ما تستطيع حمله ،

وافتح باب الكنيسة الذى فيه الخوخة الموصلة إلى البحر واخرج ، فإذا

وجدت سفينةً صغيرةً ومد إليك رئيسها يده فطاوغه وناوله يدك ، حتى يجلسك في السفينة ، وانتظرني فيها حتى أجيء إليك ، واحذر أن تنام في تلك الليلة ، فيفوت علينا الغرضُ وتندمُ حيث لا ينفع الندمُ ، ثم ودعته وذهبت إلى البنات ، وخرجتُ بهن من الكنيسة فوجدت الخدم والبطارقة وقوفاً أمامها ينتظرون ، فركبت بغلتها تحت مظلتها الحريرية ومشيتُ في حفل من البنات حتى دخلتُ قصر أبيها .

لبث نور الدين مختبئاً في مكانه ، حتى فتحت أبواب الكنيسة ودخلها الناسُ ، فاختلط بهم ، وذهب إلى المعجوز رئيسة الراهبات ، فسأله :
أين رقدت الليلة ؟

فقال : رقدتُ في المدينة بعيداً عن الكنيسة كما أمرتني .
فقالت : فعلت الصواب يا ولدي ، ولو بت في الكنيسة هذه الليلة لقتلت أشنع قتلة .

فقال : الحمد لله الذي نجاني من شرِّ هذه الليلة بفضل مشورتك ولنصيحتك . وجعل يباشر عمله وخدمته بقية نهاره .

وفي الموعد المضروب من تلك الليلة أخذ نور الدين ماشاء من صندوق النذر ، وخرج من الباب المعهود إلى البحر ، فوجد السفينة في انتظاره ، ووجد رئيسها شيخاً طويلاً اللحية ، ومعه عشرة رجال ، فناوله يده وجذبه إليه ، فكان بجواره بالسفينة ، ثم قال الرئيس لمن معه من الرجال : هيا بنا سيروا .

فقال أحدهم : كيف نساfer بالسفينة ومولانا الملكُ سيركبها غداً ،
ليطوف بها فى البحر ، فإنه خائف على ابنته مريم من قرصان البحر
ولصوصه ، فأخرج الرئيس سيفه من غمده ، وقطع به عنقه قائلاً : كيف
تخالف أمرى ؟

فقال أحد العشرة : وماذا فعل حتى تقتله ؟ !

فالتفت إليه الرئيسُ وضرب عنقه فأطار رأسه ، ولم يزل يقتلهم واحداً
بعد واحد حتى قتلهم جميعهم ؛ ثم التفت إلى نور الدين غاضباً ، وقال : انزل
إلى البرِّ وفكِّ حبال السفينة حتى نساfer ، نخاف نور الدين ونفذ ما أمر ،
وسارت السفينةُ فى البحر ، وإن نور الدين ليدوبُ خوفاً ورعباً ، ولم يعلم
ماخبأه له القدر .

ولما أضجى النهار مدّ الأسُ يده إلى لحيته ونزعها ، فبان من تحتها
وجهُ مريم الزنارية ، فعجب نور الدين ، وكاد يطير فرحاً ، وأيقن أن الأيام
واتته وصالحته ، وأنه واصل إلى بُغيته ، فشكرت له هذا الشعور الوافى
الكريم ، وقالت فى نفسها : من هذه حالته فهو رجلٌ عظيم النفس
كريمُ السجية ، يكره الرذيلة ولا يأتى الدنية ، وكانت رابطة الجأش
قوية القلب .

فقال لها نور الدين : لو أطلتِ على مدة هذه الحيلة لمتُ من الخوف
والفزع ، وصدرى ملتهبٌ بنار الاشتياق ، وألم الفراق .
فضحكت مريمُ وقالت : الآن ذهب خوفك ، واطمأن فؤادك .

ثم أحضرت الطعام والشراب فأكلا وشربا ، وعرضت عليه كثيرا من اليواقيت والجواهر ، وثمان الذخائر مما أحضرته من خزان أبيها ، ففرح به وبها ، وما زالت السفينة سائرة بهما حتى رست على ميناء الإسكندرية ، فنزل نور الدين وربطها في حجر كبير على الشاطئ ، وأخذ معه شيئا من الجواهر والذخائر وقال لها : انتظري هنا حتى أحضر لك نقابا وحبرة وإزارا وخفّا ، فإنى لأحب أن تنزلى المدينة لإمحنةً مُحْتَشَمَةً ، فقالت : احذرن أن تبطن ، فإنى أخاف أن يكون بطوك سببا في مضرتنا . فقال : سأعود إليك أسرع من الريح ، وذهب إلى زوجة التاجر صاحب أبيه : ليحضر من عندها النقاب والحبرة والإزار والخف ، ولم يعلم ماخبأه له الغيب . وأصبح والد مريم ، وتفقدها فلم يجدها ، فسأل عنها جواريتها وخدمها فقالوا : ذهبت الليلة الماضية إلى الكنيسة ، ولم نعرف عنها شيئا غير ذلك ، وسمع الملك إذ ذاك صرختين عظيمتين تحت القصر ، وجيء له بالصارخين ، فقالوا : وجدنا عشرة رجال مقتولين على ساحل البحر ووجدنا سفينة الملك قد فُقدت ، وباب الكنيسة من جهة البحر مفتوحا ، وبحشنا عن الأسير الذى كان فى الكنيسة فلم نجد له أثرا ، فقال الملك : ما دامت سفينتى قد فقدت فريم ابنتى فيها من غير شك ، ثم نادى رئيس الميناء ، وقال له : إن تلحق سفينتى ، وتحضر لى ابنتى ، وإلا فانى قاتلك ، فسأل هذا رئيسة الكنيسة العجوز عما كان يقوله الأمير ، فقالت سمعته يقول : إنه من مدينة الإسكندرية .

فأمر البحّارة أن يُعدّوا أنفسهم للسفر فوراً إلى مدينة الإسكندرية ،
وجدّوا في السفر إليها حتى جاءوها في الوقت الذي ذهب فيه نور الدين
ليُحضر الملابس إلى مريم ، وكان من جُملَة الإفرنج القادمين الوزير الأعورُ
الأعرجُ ، فعرفَ سفينةَ الملك وهي راسيةٌ ، فوقف بسفينته الكبيرة
بعيداً ، وبعث بمركبٍ صغير به مائة جنديّ ، فلم يجدوا إلا سفينة الملك
وبها مريم ابنته ، فأخذوها إلى مركبهم الكبير وطاروا على سطح البحر
بسُفُنهم إلى بلادهم ، حتى دخلوا بمريم على أبيها ، وهو جالسٌ في ديوان
حكمه ، فلما رآها حدّق فيها بغضبٍ ، ثم قال :

وَيْلَكَ يَا خائنة ، كيف تركتِ بلادك وبلاد أهلك ، ورحلت إلى بلاد
أخرى ؟ !!

فقالت مريم : ليس لي ذنبٌ فيما حصل ، فقد خرجتُ الليلة الماضيةً
لأزور الكنيسة وأتبرّك بمكان السيدة مريم ، وفي غفلةٍ مني هَجَمَ علىَّ
لُصوصٌ ، وشدّوا وثاقى ، وحطّوني في سفينتهم ، وسافروا بي إلى بلادهم ،
تخادعُهم وتحدّثُ معهم حتى فكوا وثاقى ، ولكنى بقيتُ في ضيقٍ
شديدٍ حتى أدركنى رجالك ، فخلصُونى ، وإني فرحتُ بخلاصى منهم
فرحاً عظيماً .

فقال أبوها : كذبتِ يا خاطئة ؛ لأقتلَنَّكِ شرّاً قتلةً ، أما كفّاكِ
فعلتُكِ الأولى حتى تخادعينا الآن ببهتانٍ جديدٍ ؟ ! ودخل عليه وزيره
الأعورُ فوجده مُصرّاً على قتلها ، وكان يحبها حباً عظيماً ، فأشار عليه أن

يزوجها له ، على أن يبني لها قصرًا على البنيان ، وعليه من الحرس رجالٌ شداد ، فلا يستطيع أن يصل إليها فيه أحدٌ .
فرضى الملكُ وأبرمَ عقد الزواج ، وبدأت العمالُ تبني القصرَ الذى يليقُ بها .

أما نورُ الدين فى الإسكندرية فقد استعار الملابسَ من زوجة التاجرِ صديق والده ، ورجع فلم يجد السفينة ولا مريم ، فاغتاظ وحزن ، ومشى على شاطئ البحر باحثًا متلفتًا هنا وهناك ، لعله يجد أثرًا لمريم أو سفينتها فلم يجد شيئًا ، ولكنه سمع أناسًا مجتمعين يقولُ بعضهم لبعض : ضاعت حُرمة الإسكندرية ، وطمع فيها ضعافُ الأجانب من الفرنجة ، فأصبحت سفنها تخطفُ من شواطئها جهرةً ، وكان جنودنا فقدوا ما لهم من قوةٍ ونخوةٍ ، فلم نرم طاروا وراء السفينة ليردوها غصبًا وعَنوةً ، وما عهدناهم إلا حُماةً فى شجاعةٍ وعزةٍ ، فسألهم نورُ الدين عما جرى فقالوا : جاءت مركب من مراكب الفرنجة ، فاختطفَت سفينة من سفن المدينة بما فيها ورجعت هاربة ، فاشتد به الحزن وقال :

واضيعة المسعى !!

فسألوه عن حاله ، فأخبرهم بقصته ، فأنكروا عليه سوء تصرفه ، وشتموه ووبخوه .

فمن قائل : ولم لا تخرجها من السفينة دون تقاب ؟ !

ومن قائل : وهى إفرنجية فلا عتب عليها .

ومن قائل كفاهُ ما جرى له ، وذلك جزاء الغيِّ الذي لا يُحْكِمُ
تدبير أمره .

وجعلوا يرفعونه بالكلام القاسى حتى مرَّ بهم التاجر صديقُ أبيه ،
فوقف يتبينُ أمره ولما عرف القصة غضب ، وقال : ولماذا لم تخرجها من
السفينة فور وصولها ، وتهربُ بها في غمار المدينة ؟ ولكن لا فائدة من
الندم الآن ، والبكاء على الفائت نقصٌ في العقل ، فسرَّ معي إلى المدينة ،
فلعل الله يرزقك تجارية أجملَ منها وأكملَ ، فتنسى بها تلك الجارية ،
وتذهب عنك ما ألمَّ بك من حزن وألم .

فقال نورُ الدين : يا عمّ ؛ لن أنساها ، ولن أسكتَ عن طلبها ، وإن
سُقيتُ كأس الردى من أجلها .

فقال التاجر : وماذا اعتزمت أن تفعله ؟

فقال : سأرجعُ إلى مدينة أبيها في طلبها ، فإما فزت وإما خذلتُ ،
ولن ألقى سلاحى ما دمت قادراً على الجهاد في عزمٍ وقوة .

فقال التاجرُ : أما سمعتَ المثلَ السائر : ما كلُّ مرة تسلمُ الجرّة !!
ولا تنسى أنهم عرفوك الآن حقَّ المعرفة .

فقال نور الدين : وما كان لمؤمن أن يضعف قلبه ، ويترك الجهاد في
حياته خشية الخيبة ، وإن أُقتلَ في ميدان العمل فهو خيرٌ من أن أموتَ
على سرير الفشل .

واتفق أن سفينة في الميناء كانت على أهبة السفر إلى مدينة مريم ،

فركب نور الدين فيها ، وساقها الريحُ تجرى رُخاء إلى حيث يُريدون .
وكانت سفن الفرنجة منتشرةً في البحر طائفة حارسةٍ ، وما كادت
السفينة التي بها نور الدين تسيرُ ثلاثة أيام في البحر حتى أسرها مركبٌ
كبير من مركب الفرنجة ، وساقها إلى مدينة الملك والد مريم حيث
يُذبح الأسرى ، وكانوا مائة ، فأمر الملك بذبحهم ونور الدين من بينهم ،
وبدأ السَّيفُ يقطع رقابهم حتى لم يبق إلَّا نور الدين ، فارتاب الملك في أمره
إذ رآه أشبه الناس بنور الدين ، وسأله قبل أن يقتله : أَلَسْتَ نور الدين ؟
فقال : إني رجل يُسمى إبراهيم .

فقال الملك : أنت نور الدين نفسه ، وأنت الذي أرسلتك لخدمة
الكنيسة .

فقال : لم أكن في يوم ما نور الدين ، ولا أعرف نور الدين ، ولا خدمة
الكنيسة ؛ ولكني رجلٌ اسمه إبراهيم .

وبينما هما في هذه المحادثة إذ حضر الوزير الأعور الأعرج فقال : لقد
فرغتُ من بناء القصر ، وأريدُ أن أذبح على بابه ، قرباناً للكنيسة ، عشرة
من الأسرى .

فقال الملك : لقد ذبحتهم جميعهم ولم يبق إلَّا هذا — وأشار إلى نور
الدين — نخذه واذبحه إلى أن نعدك بالبقية إذا ما وقعت في أيدينا ، ولما
أخذه ارتاب في أمره أيضاً ، فسأله عن اسمه ، فقال : اسمي إبراهيم .

فقال الوزير : ولكنك قريب الشبه بنور الدين ، وربما كنت نورالدين الذى هرب من الكنيسة .

فقال : لا أعرف نور الدين ، ولا أعرف الكنيسة ، وما وطئت قدماى هذه المدينة إلا هذه المرة ، ولكنى رجل يسمى إبراهيم .

فقال الوزير : ما دمت مقتولا فسواء علينا أكنت نور الدين أم كنت غيره ؛ وهم أن يذبحة على باب قصره ، ولكن العمال قالوا له : لم يبق فى أيدينا لإتمام العمل إلا مدة يومين ، والأحسن أن تنتظر حتى نفرغ هم تذبج من تشاء ، وربما جاءتك بقية العدد ، فتذبجهم دفعة واحدة وتوفى بنذك مرة واحدة .

فأمر الوزير بحبس هذا الأسير « نور الدين » حتى يفرغ العمال من بقية عملهم .

حبس نور الدين مقيدا عطشان جائعا ، ورأى أن موته آتية لا ريب فيها ، فرأى أن يفعل فعلة تقرب إليه أجله ، حتى يخلص من هذا العذاب المصنوب عليه .

وكان للملك حصانان شقيقان ، أحدهما أشهب نقي ، ويسمى سابقا ، والآخر أدهم كالليل ويسمى لاحقا ، وكانت الملوك مشغوفة باقتناء أحدهما حتى جعلوا جائزة مغرية من المال لكل من سرقهما أو سرق أحدهما ، وكان قد أصيب أحد الحصانين بمرض فى عينيه ، وعجز الأطباء عن علاجه ، وكان الملك فى غم من أجل ذلك الحصان المريض ، فعرض عليه الوزير

الأعور أن يأخذه عنده ليعالجه ، فرضى الملك و تُقِلَّ الحصانُ إلى الإصطبل الذى حبس فيه نور الدين .

ولكن الحصان السليم أزعج الناس من الصياح حُزنًا على فراق أخيه ، فأمر الملك غلمانه أن ينقلوه مع أخيه المريض ، وأن يبلغوا الوزير أنه أنعم عليه بهما إكرامًا لابنته مريم .

ولما رأى نور الدين الحصان مريضًا بعينه قال فى نفسه : تلك فرصة أخلصُ بها من هذا البلاء ، وذلك أن أدعى معرفتى بعلاج الخيل ، وأقترح على الوزير أن أقوم بمداواة عيني هذا الحصان ، ثم أضعَ فيهما ما يتلفهما ، فأفتح بذلك بابًا للتحدث عني ، وربما وصل إلى مريم خبري ، فتحتال لخلاصي ، وإن لم يكن هذا فالتعجيلُ بقتلي خيرٌ من هذا العذاب الذى آخرته القتل والفناء .

ولما دخل عليه الوزير قام إليه وقال : ألا تحبُّ أن أداوى عيني هذا الحصان ؟

فقال : وهل تستطيع شفاءهما ؟

فقال : نعم .

قال الوزير : إذا أنت شفيت عينيه أعنتك من الذبح ، وجعلتك تتمنى عندي ما تشاء .

فقال : مُرْ أن تفكَّ قيودي حتى أباشر العلاج ، فأمر الوزير وفكَّ قيوده .

قام نور الدين وأحضر زجاجاً بكراً فسحقه ، وجيراً لم يُطفأ ، وبعضاً من ماء البصل ، وخلط كل ذلك بعضه ببعض ، ووضعهُ في عيني الحصان وربطهما وقال في نفسه : ستُفَقِّأ العينان ، وسيُذاعُ أمرى في المدينة ، فإِما علمت مريم واحتالت انجأتى ، وإِما اغتاظ الملك ووزيره وعجلاً بقتلى ، وعلى كلِّ حال فقد فعلت هذا وأسلمتُ إلى الله أمرى ، وعلمهُ بحالى يغنى عن سؤالى .

وفي الصباح جاء الوزير الأعورُ ، وفكَّ الرباط عن عيني الحصان ، فوجدَهما أحسن من عيني أخيه ، ففرح ونادى :

يا هذا ؟ ما رأيتُ مثلك في مداواة الخيل ، لقد عجز عن مداواته كلُّ يُطْرِىٍّ في بلادنا ، وقد فرحتني وأزلتَ عنا غمّاً كثيراً ، وقد عفوتُ عنك ، وجعلتُكَ ناظراً على خيلي ، ومسكنك الطبقةُ التى فوق الإصطبل ؛ فشكرهُ نورُ الدين ، وحمد الله كثيراً في نفسه ، وكان البيتُ الذى بناه الوزيرُ لمريمَ به شباك يطل على تلك الطبقة التى سكن فيها نورُ الدين ، وألبسه الوزيرُ حُلَّةً سنّيةً ، وجعل له مُرتباً ونفقةً ، وقام نورُ الدين بإدارة شئون الخدم على خير ما ينبغى ، وتولّى هو رعاية الحصانين ، لما يعلم من محبة الوزير لهما .

وكان لهذا الوزير بنتٌ بكر ، على جانبٍ عظيم من الحسن والجمال ، وبسكنها شباك مُطل على الطبقة التى يسكن فيها نورُ الدين ، وكانت تسمعه كثيراً يغنى ، فقالت في نفسها : إن هذا المسلم شابٌ جميل فصيح ،

وهو لا شك عاشق مُفارق ، فإن كان قد عشق مثله في الحُسن والملاحة
فحق له أن يُسِيل العبرات ، وإن كان قد عشق أقلّ منه جمالاً فقد ضيّع
عمره في الحسرات .

وكانت مريم قد نقلتْ إلى قصرها الجديد أمسِ ذلك اليوم ، وعرفت
بنت الوزير منها ضيق صدرها ، فعزمت أن تذهب إليها ، وتحدثها بما
سمعت من هذا الغلام الجميل ، الذي نال إعجابها ، وبينما هي تفكر في ذلك
إذ برسل مريم تطلب بنت الوزير لتذهب إليها للحديث والمؤانسة ،
فوجدتها في قصرها الجديد حزينة مكتئبة ، فقالت لها : مالك أيتها الملكة
ضيقة الصدر ، قلقة مضطربة ؟

فأجابتها : إن المرء لا يملكُ لنفسه نفعاً ولا ضرّاً ، وسأصبرُ حتى
يأذن الله لي بالفرج .

فقالت بنت الوزير : فرّجى عن نفسك ، وقومى معى إلى شباك
القصر ، فإن عندنا فيه شاباً رشيقي القوام ، حلوَ المقال ، لم ترَ عينك
أجمل ولا أرقّ منه لفظاً ، ويخيّلُ إليّ أنه عاشق مُفارق .

فقالت : وكيف عرفت أنه عاشق مُفارق ؟

قالت لا يسكت عن قول الشعر ، والتغنى به ، ليلَ نهار ؛ وكأني
بالذى يسمعه لا يُحبُّ أن يفارقه .

فقالت مريم في نفسها مدفوعة بإحساسها ، وإلهام شعورها : إن
صحَّ ما قالته بنت الوزير ، فلا شك في أنه نورُ الدين .

ثم قامت معها إلى الشباك ، وحدثت فيه يبصرها ، فعرفت أنه نور الدين ، فكتبت مريم أمرها في صدرها ووقفت بُرْهَةً تسمعه وهو يغنى ، ثم قالت لبنت الوزير : أشكرُ لك عطفك ومؤانستك ، وما كنت أظن أنك تعرفين ما بي من قلق وضيق صدر ؛ ورجعت مريم إلى مكانها ، وعادت بنت الوزير إلى قصر أبيها ، تراولُ شغلها فيه ، ثم رجعت مريم إلى الشباك وحدها ، لتفرح برؤية نور الدين والاستماع إليه وهو يغنى . وكذلك أسمعته صوتها ، حتى أيقن أنها جاريته مريم ، وانتظر ما كان يتوقعه من تدبير حيلة لخلاصها وخلاصه ، ثم قامت مريم إلى قرطاسٍ فكتبت فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

سلامُ الله ورحمته عليك

هذه مريم الزنارية التي أضناها الشوق إليك ، ترجو منك أن تقوم بعناية وحذر بما أشير به عليك ، واحذر أن تتكاسل أو تنام .

إذا مضى ثلث الليلة القادمة فجهّز الفرسين للركوب ، ثم اخرج بهما حتى تطلع من المدينة ، وإذا سألك أحدٌ : إلى أين تذهب ؟ فأجبه أنك تروضُ الفرسين ، وانتظرنى خارج المدينة حتى أحضرَ إليك . والحذر الحذر من التكاسل والنوم ، كتب الله لنا الهرب سالمين من هذه المدينة وأهلها .

جاريته

مريم الزنارية

ثم وضعت الورقة المكتوبة في منديلٍ من الحرير ، وألقته من الشباك أمام نور الدين ، فقرأ الورقة وعرف كل شيء .

وفي الموعد المضروب أُسْرِجَ نور الدين الفرسين ، وخرج بهما من المدينة ، وقعد ينتظرُ مريم جاريته .

أما مريمُ فبعد أن أَلْقَتْ رسالتها إلى نور الدين ذهبتُ إلى مكانها المعتد لها في قصرها ، فوجدت الوزيرَ الأعورَ جالساً على حشيرةٍ من حرير ، متكئاً على مخدةٍ محشوةٍ بريش النعام ، ولا يزال على استحياء أن يكلمها أو يمد يده عليها ، فناجت مريمُ ربها بقلبها أن يخلصها من ذلك الوزير الأعرج الأعور .

ثم أقبلت هي عليه ، وجلست بجواره ، وأخذت تلاطفه وتمازحه ، وتقول : ما هذا الإعراضُ ؟ هل هو منك تيهٌ ودلال ؟ ولكن المثل يقول : إذا بار السلامُ سلم القعودُ على القيام ، فإن كنت تهجرني ولا تجيء إلى فياني أصلاً ، وأحب أن أكونَ بين يديك ، أحادثك وأتني رضاك .

فقال الوزير : لك الفضلُ كله ، ياسيدي الممكة ، ولست إلا خادماً من خدمك ، ولا يمنعني إلا حيائي منك .

فقالت : دعنا من هذا الكلام ، وأمرت فجئ بالطعام والشراب ، فوضعت في الحال أمامهما مائدة ، عاها مالذ وطاب من لحوم وفواكه وحلويات فجعلت تأكل وتطعم الوزيرَ حتى شبعا ، ثم أخذت تؤاكله وتضاحكه وتمازحه ، ثم غافله ووضعت قرصاً من البنج في كأس ، وقدمتها

إليه فشربها ولم يدر ما بها فما كاد ينتهي من شربه حتى فقد وعيه وحسّه ،
ونام نومة عميقة هي إلى الموت أقرب .

قامت مريم بعد ذلك إلى خرّجين ، ووضعت فيهما ما استطاعت حمله
من الجواهر واليواقيت ، وشيئاً من الطعام والشراب ، ولبست حلة
الحرب ، وتقلدت سلاحها ، وأخذت معها حلة ملوكية وسلاحاً ، لسيدها
نور الدين ، وخرجت من قصرها في قوة بأس ، وشجاعة نفس ، إلى
نور الدين حيث ينتظرها خارج المدينة .

جلس نور الدين ينتظر مريم ومقاود الحصانين في يده ، فغلبه
النوم ونام .

وكانت ملوك الجزائر قد جعلت لمن يسرق هذين الحصانين - أحدهما
أو كليهما - مالا جزيلا ، وكان قد اشتهر بسرقة الخيل في هذه الأيام
عبد أسود ، وطمع في أن ينال المال الجزيل ويسرق الحصانين ، فاخفى
في تلك المدينة ، وجعل يحتال لسرقتهم فلم يستطع ، وكاد أن ييئس
منهما ، وبينما هو سائر خارج المدينة في تلك الليلة المظلمة ، يفكر في وسيلة
تتمكنه من السرقة ، إذ حانت منه التفاتة ، فرأى نور الدين نائماً ، وهو
ممسك بمقاود الحصانين ، فأسرع إليه ونزع المقاود من رأسيهما ، وهم أن
يركب حصاناً ، ويسوق الآخر أمامه ، وإذا مريم الزنارية مقبلة ، فوضعت
خرجاً على حصان ، ووضعت الثاني على الحصان الآخر ، والعبد ساكت
لم يتكلم ، ثم قالت مريم : ما لك ساكت لا تتكلم يا نور الدين ؟

فأجابها العبد غاضباً : ماذا تقول أيها الفارس ؟ فعرفت من لفته أنه
بربرى ، وحدقت يبصرها في وجهه ، فوجدت مشافره غليظة تكاد تملأ
صفحته ، فاغتاضت وقالت :

من تكون يا شيخ بنى حام ؟

فقال : يا ابن اللثام ، أنا همام ، مزعجُ القعود والقيام ، وسارق الخيل
والناس نيام .

فجردت سيفها من غمده ، وعاجلته بضربة في عنقه ، فصلت رأسه عن
جسده ، ثم أخذت تبحث عن سيدها نور الدين فوجدته غارقاً في نومه ،
والمقاود لا تزال في يده ، فأيقظته مرعوباً ، ووضعت المقاود في الحصانين ،
وأركبته حصاناً وركبت هي الحصان الآخر ، وجداً في السير ساعة من
الزمان ، وهما لا يتكلمان ، والخوف يملأ من نفسه كل مكان ، ثم أقبلت
عليه قائلة : أما حذرتك من النوم ؟!

فقال : كنت منه في حذر ، ولا أدري كيف غلبني ؟ وهل حصل
شيء ؟ فأخبرته بما كان من أمر العبد همام .

فقال : الحمد لله الذي نجانا من الظلم وأهله .

واستمر سائرین حتى أشرقت شمس الضحى ، وكانا قد وصلا إلى
مرج واسع ، منحصر الجوانب ، ترح غزلانه ، وتغرد أطياره ، وقد أثمرت
أشجاره ، وفاحت بالعبير أزهاره ، وسالت جداوله وأنهاره ، فنزلا فيه
ليستريحا ، وأطلقا الحصانين يأكلان من هذا المرج ما طاب لهما ويشربان ،

وجلسا يأكلان ويتحدثان ، فما لبثا أن رأيا غبارا يقربُ منهما شيئاً فشيئاً ، وكان سببه أن الملك ذهبَ حسبَ العرف والعادة إلى ابنته في صبيحة الليلة التي دخل بها زوجها فيها ، ومعه كثيرٌ من الهدايا لها ولغلمانها في قصرها ، فوجد الوزير ملقى على الأرض ، يحسبه الرائي ميتاً وما هو بعيت ، ولكنه من أثر البنج في غيبوبة عميقة ، فاعتمَ الملكُ ، وزاده غمّاً على غمه أنه لم يجد ابنته ، فأمر بإحضار الماء الساخن والخلّ البكر والكندر ، وخلط بعضها ببعض ، ثم سقاهُ من هذا الخليط مقدار فنجان ، وأنشقه منه ، فتقايأ الوزير ، وألقى ما كان في جوفه من البنج فأفاق ، ثم سأله عن ابنته فقال :

لا علم لي بها ، إلا أنها سقتني قدحاً من الماء ، فلم أنتبه بعدها إلا أمامك الآن ، فاغتاظ الملك ، ونزع سيفه من غمده ، وضرب به الوزير في رأسه ، فمات لساعته ، ثم نادى الغلمان والخدم ، وطلب منهم الحصانين ، فقالوا :

فقدناها الليلة ، كما فقدنا كبيرنا معهما ، ولا نعلم شيئاً من ذلك ، إلا أننا أصبحنا فوجدنا أبواب القصر مفتوحة ، فقال :

إني على يقين أن الحصانين ما أخذهما إلا ابنتي والأسيرُ الذي كان يخدمُ الكنيسة في المرة الأولى ، وقد عرفته وأردتُ قتله ، ولم يخلصه مني إلا ذلك الوزير الأعورُ ، وقد لقي مني جزاءه ، ثم نادى أولاده الثلاثة ، وكان لهم من الشجاعة والفروسية حظٌ عظيم ، فأمرهم أن يركبوا في جنودهم ،

وركب هو معهم ، وساروا في الطريق الذي ظنوا أن الأسير ومريم ابنته سارا فيه ، حتى طلعا بغيارهم عليهما ، وهما يستريحان في واديهما .
 عرفت ذلك مريم ساعة أن رأت العُبار يدنو منها شيئا فشيئا ، فلبست
 عدة قتالها ، وركبت جوادها ، واستعدت للملاقاة ، وقالت لنور الدين :
 كيف حالك في القتال ؟

فقال : لا ثبات لي .

فابتسمت وقالت : أنا أكفيك شرهم وإن كانوا عدد الرمل ، فاركب
 أنت جوادك ، وكُن دائما خلفَ ظهري ، وإنا انهزمنا فأطلق العنان
 لجوادك ، فلا يلحقه لاحق ، واحذر أن تقع وهو يجري .
 ولما رآها الملك وعرفها نادى ابنه الأكبر ، وقال : هذه أختك قد
 برزت لقتالنا ، فبرز إليها ، فإن ظفرت بها فارجع بها أسيرة ، وإلا فاقتلها
 ومثل بها ، فبرز إليها أخوها الأكبر وقال :
 إن لم ترجعي وتسلمي نفسك فسأقتلك بسيفي هذا .

فضحكت مريم غير عابثة وقالت : إنك تطلب مني محالا ، فإن لن
 أرجع إليكم مادمتم تضطهدوني في حريتي ، وسأسقيك بسيفي هذا كأس
 الردى . فغضب أخوها وحمل عليها فحملت عليه ، ولم يُفلت من يدها إلا
 مقتولا ، ثم نادى فطلبت المبارزة ممن يحب أن يلقي حتفه ، ويسفك دمه .
 فحزن الملك لموت ابنه الأكبر ونادى ابنه الأوسط أن يُجبل بقتل
 أخته ، ويأخذ بشار أخيه .

فقال : سأجعلها طعاماً للوحوش بعد قليل .

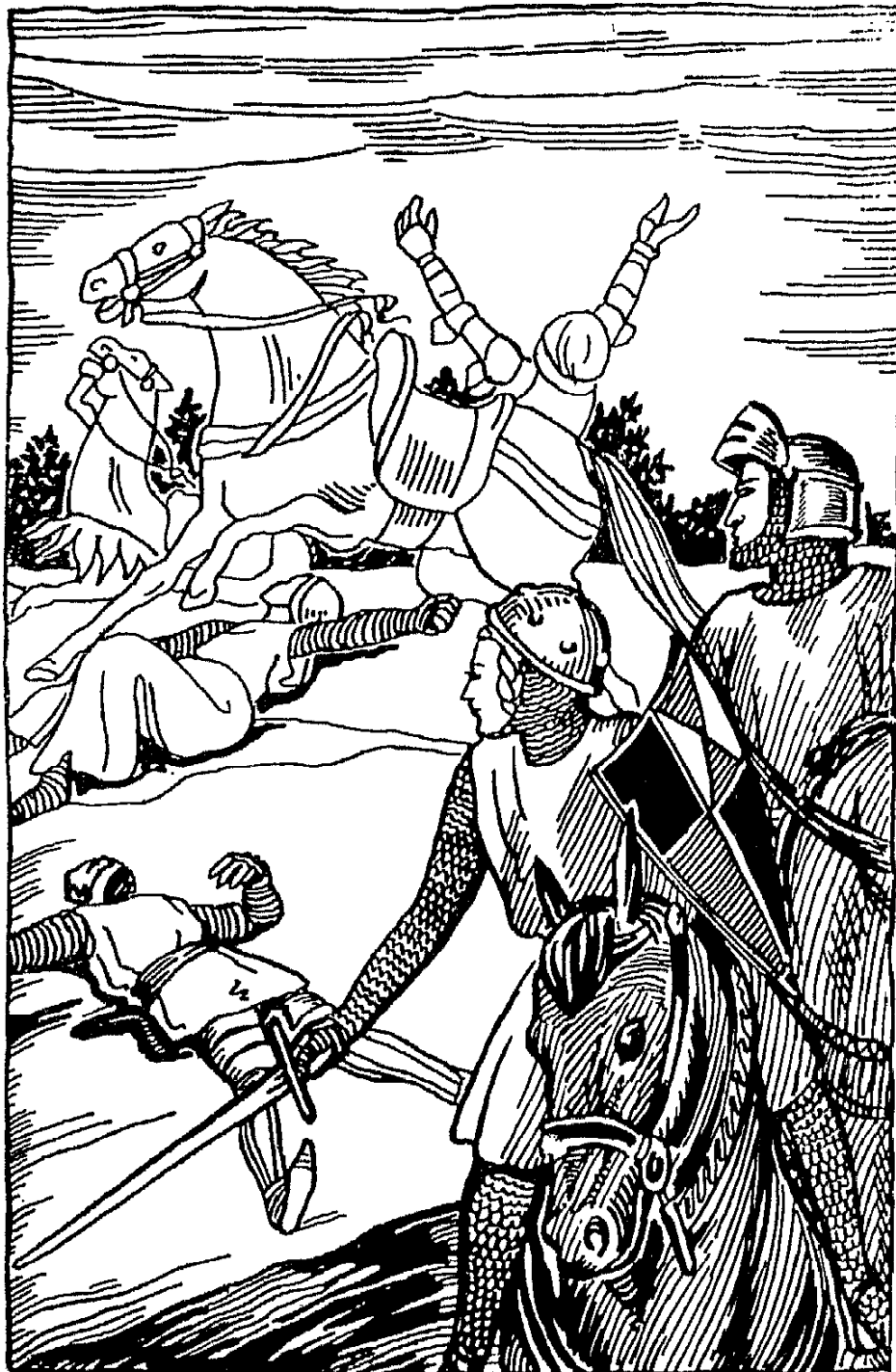
وبرز لقتالها ، فاستدرجته حتى طمع فيها ، ثم حملت عليه حملة عنيفة أحسن عنفها وشدها ، وحاول الهرب منها فلم يستطع ، ورمته بضربة قوية أردته قتيلا .

ثم جالت جوله الفائز المنتصر قائلة : أين فرسانكم وأبطالكم ؟ أين وزيركم الأعور الأعرج ؟

فالتهب صدر أبيها غيظا ، وطلب إلى ابنه الأصغر أن يبرز إليها ويأخذ بثأر أخويه منها ، فلما كان بين يديها قالت : يا عدو الله وعدو نفسك ، جئت مختارا لأسقيك كأس الردى ، وداورته مداورة الفارس الماهر ، وضربته بسيفها ضربة كان على أثرها من الهالكين ، فوقع الرعب منها في قلوب البطارقة والفرسان ، وقالوا : لا طاقة لنا بقتالها ، ولولا أدبارهم هاربين .

فأطرق أبوها خيبة وفشلا وقال : إن بارزتها كان مصيرى معها مصير أولادى ، وليس لى إلا الهرب مع جنودى ، وأرخصى العنان لفرسه ، ورجع خائبا مدحورا ، فلما كان فى قصره ، جمع كبراء دولته ، وحكى لهم ما فعلته ابنته ، فأشاروا عليه أن يكتب إلى خليفة المسلمين ، ويحكى له قصتها ، فكتب إليه كتابا جاء فيه :

السلام على أمير المؤمنين ، إن لى بنتا اسمها مريم ، أفسدها علينا أسير من أسرى المسلمين ، فتركت دين آبائها وأجدادها ، واعتنقت دين الإسلام ،



وخرج بها إلى بلاده ، وهو يدعى نور الدين على بن تاج الدين التاجر
المصرى ، فمن فضل مولانا أمير المؤمنين أن يأمر بالقبض عليها ، وإرسالها
إلينا في صحبة رسول أمين ، وسنجعل لكم في نظير هذا نصف مدينة من
مدننا الكبرى ، نُحْمِلُ لكم خراجها ، وتبنون المساجد فيها .

ثم ختم الكتاب ووقع عليه كبراء دولته ، وأرسل به أحد وزرائه إلى
مدينة بغداد ليناوله بيده أمير المؤمنين ، ووَعَدَهُ إن جاء بها أعطاه إقطاع
أميرين ، ومنحهُ من الهدايا أعظمها وأغلاها .

(٨)

سافر الوزير ، وجعل يقطع الأودية والقفارَ حتى وصل إلى مدينة بغداد
وسأل عن دار الخلافة فصحبه أحد الناس إليها ، فوجدها عالية البنيان ،
ممدودة النواحي ، تبدو عليها أمارات العظمة والجلال ، تزينها حديقة غناء
تحيط بها إحاطة الهالة بالقمر ، وانتشر فيها الخدم والعلماؤنا هنا وهناك ، فاستأذن
على الخليفة ، وهو من هيبة الدار وجلالها في غمرة ، فأُذِنَ له ، فوجد الخليفة
جالساً في مقصورة واسعة ، مفروشة بالبسط الحريرية ، وصفت فيها
الكراسي المطعمة بالفضة ، وزينت نوافذها بستائر مزركشة ، وتدلت
القناديل من سقفها ، كأنها نجومُ السماء ، وأمامه منضدة من العاج المرصع
بالذهب والجوهر ، ومن حوله وزراءؤه وحاشيته ، فسَلَّمَ وحياً في أدب
واحترام ، وقال :

أنا وزير ملك الفرنجة ، ورسوله إلى مولانا أمير المؤمنين ، وتاوله ما معه من الهدايا الجوهريّة ، وكتاب ملكه ، فلما قرأه أجلسه ، وأمر بإكرامه ، تعظيما لوفادته وتكريما ، كما أمر وزراءه أن يرسلوا إلى حكام الأقاليم بإحضار مريم ونور الدين إليه وأن يُبينوا لهم أوصافهما حتى يمكنهم العثور عليهما ، وأمر أن يُقيم الوزير مكرما في بيت الصياغة ، حتى تمضي المدة التي ينتظر أن يُعثر عليهما فيها .

واتفق أن وصل أمر الخليفة إلى حاكم الشام قبل وصول نور الدين وجاريته إلى دمشق بليلة ، فعرفهما العسس وقبض عليهما وقت وصولهما وسألوهما عن أنفسهما ، فحكى نور الدين القصة كما هي ؛ وفرح حاكم دمشق بالعثور عليهما ، وبعثهما إلى الخليفة في حراسة جماعة من جنوده . ولما كانا بين يدي الخليفة ووزرائه ورجال أمره ونهيه في مقصورته ، أحضر رسول ملك الفرنجة ، وكان الخليفة قد أعجب بما لمريم ونور الدين من فصاحة ولباقة ، وبما فيها من إشراق وإبداع .

سلمت مريم على الخليفة ، وحيته تحية رشيدة قيمة ، ودعت له بالعرز الدائم ، والسلطان القاهر ، الذي يمتاز به الدين ، وتعلو به كلمة المسلمين — وكان ذلك في لغة عربية فصيحة ، وقول عذب مبين ، وقلب ثابت ، ونفس مطمئنة — فزاد إعجاب الخليفة بها ، وعظم إقباله عليها ، واهتمامه بأمرها ، وسألها : هل أنت مريم الزنارية بنت ملك الفرنجة ؟

فقلت : نعم يا أمير المؤمنين ، وإمام المسلمين ، وعميد الموحدين ،

وَمَعْصِمَ الدِّينِ ، وابنَ عَمِّ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ .
 فَذَشِطَ عَجِبَهُ وَأَلَحَّ عَلَيْهِ الْإِهْتِمَامُ بِهَا ، وَالتَفَتَ إِلَى نُورِ الدِّينِ سَائِلًا :
 وَهَلْ أَنْتَ نُورُ الدِّينِ عَلَى بْنِ تَاجِ الدِّينِ التَّاجِرِ الْمَصْرِيِّ ؟
 فَقَالَ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمِلَاذَ الْمَظْلُومِينَ ، وَحَامِيَ الْإِسْلَامِ
 وَالْمُسْلِمِينَ .

فَعَجِبَ الْخَلِيفَةُ أَيْضًا ، أَنْ رَأَاهُ مِثْلَهَا فَصَاحَةً ، وَسُرْعَةً فَهَمَّ وَإِجَابَةً .
 وَقَالَ : وَكَيْفَ أَخَذْتَ هَذِهِ الْفَتَاةَ مِنْ أَبِيهَا ، وَهَرَبْتَ بِهَا ؟ !
 فَجَمَلَ يَقْصُ عَلَيْهِ مَا جَرَى لَهَا فِي عِبَارَاتٍ جَذَابَةٍ سَاحِرَةٍ ، حَتَّى لَمْ يُبْقِ
 مِنْهُ شَيْئًا .

فَطَرَبَ الْخَلِيفَةُ وَعَجِبَ وَقَالَ : مَا أَشَدَّ مَا تَقَاسِيهِ الرِّجَالُ !!
 ثُمَّ قَالَ يَا مَرْيَمُ إِنْ وَالِدُكَ كَتَبَ إِلَيْنَا أَنْ نُرْسَلَكَ إِلَيْهِ ، فَمَاذَا تَقُولِينَ ؟
 فَقَالَتْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَسْبَغَ اللَّهُ عَلَيْكَ النِّعَمَ ، وَعَصَمَكَ مِنَ
 الْبُؤْسِ وَالنَّقَمِ ، أَنْتَ خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ ، وَالْقَائِمُ عَلَى شَرِيعَتِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ،
 لَقَدْ دَخَلْتُ فِي دِينِ اللَّهِ رَاضِيَةً مُخْتَارَةً ، أَعْبَدُ اللَّهَ تَعَالَى وَأُوحِدُهُ ، وَأَسْجُدُ
 إِلَيْهِ خَاشِعَةً مُؤْمِنَةً ، فَهَلْ تَرْضَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَسْمَعَ كَلَامَ أَعْدَائِكَ ،
 وَتُرْسَلَنِي مُؤْمِنَةً بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى بِلَادٍ لَا تَدِينُ بِدِينِكَ ؟ إِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ
 هَذَا فَإِنِّي مُتَمَسِكَةٌ بِعُنُقِكَ يَوْمَ الْعَرْضِ عَلَى اللَّهِ وَشَاكِتُكَ إِلَى ابْنِ عَمِّكَ
 رَسُولِ اللَّهِ ، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ .
 فَقَالَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : يَا مَرْيَمُ ، مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ أَفْعَلَ هَذَا أَبَدًا !! فَلَنْ

أرُدت امرأة مسلمة إلى بلاد تُغلب على أمرها فيها ، وتُفتن في دينها .
ثم قال : لن أفرط فيك ولو ملئت لي الأرض ذهباً ، فاطمئني ولا تخافي ،
وهل رضيت أن يكون نور الدين لك زوجاً ؟ فقالت : كيف لا أَرْضِي
وهو وليُّ نعمتي ، وسبب سعادتي ، وقد ألقى بنفسه إلى المخاطر من أجل
غير مرة ، ولا أزال غارقة في بحر إحسانه وفضله .

فوجه إليها أمير المؤمنين بعد أن أعتقها ، في محضر من القضاة
والوزراء والكبراء ، ثم التفت إلى وزير الفرنجة قائلاً :
هل سمعت قول مريم ؛ وعرفت ما حكمتُ به في أمرها ؟ فارجع إلى
مَلِكِكَ ، واقصص عليه ما سمعت .

فخرج الوزير غضبان آسفاً ، خائفاً يترقب .
وأمر الخليفة أن تقيم مريم وزوجها في بيت خاص ، وأن تجري
عليهما المرتبات الشهرية ليعيشا في أمن ورخاء وسعة ونعمة .



كيد النساء وكيد الرجال

(١)

كان فيما سلف من الزمان ملكٌ عزيزٌ الجند واسعُ الملك عظيمُ الجاه ،
بلغ من الكبر عتياً ولم يعقبْ ، وعظم في نفسه أن يموت وليس له
ولد يرثه في ماله وملكه ، فاتقى الله في السر والعلن ، وأكثر من فعل
الخير والتصدق على الفقراء والمساكين ، وسهر على مصالح رعيته ، وساسهم
سياسةً عادلةً مريحةً ، وجعل يدعو ربه قائلاً :

اللهم قد وعدت ووعدك الحق ، فقلت في كتابك الكريم : « وَمَنْ
يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » ، فارزقني ولداً

صالحاً وأنت خيرُ الرازقين . فاستجاب اللهُ دعاءهُ ، ورزقهُ على الكبر ولدأً أجمل خلقهُ ، وأبدعَ تصویره ؛ فأحسنَ تربیتهُ ، وعلمهُ الأدبَ والحكمة والعلم والفروسیة ، حتى فاقَ غیرهُ ، واشتهرَ بالذكاء والخبرة وسعةِ المعرفة .

وكانَ عندَ هذا الملكِ حکیم یسمى السندباد ، فنظر ذاتَ ليلةٍ فی النجوم ، لیعرفَ شیئاً عن حياة ابنِ الملكِ ، على حسبِ عادةِ الحکماء فی الرجم بالغیب والتنبؤ بالمستقبل ، وبعد أن أتمَّ الحکیم نظرتهُ ذهبَ إلى الملكِ وقالَ لَهُ :

نظرتُ فی النجوم فعرفتُ أنَّ ابنک ستمضى علیه الأيام السبعةُ القادمة ، ولكنهُ إن تکلمَ فیها بكلمةٍ معینةٍ كانت سبباً فی هلاکهُ ؛ فتحیرَ الملكُ واضطرب وقالَ للحکیم :

وماذا ترى حتى نحولَ بینهُ و بین تلكَ الكلمة التي یلقى بها حتفه ؟ فقالَ الحکیم :

أرى أن تحجزه فی مکانٍ لا یسمعُ فیهِ إلا الغناء وآلات الطربِ ، حتى تنقضى الأيام السبعةُ .

فأمر أن تحضرَ إلیهِ جاريةٌ من جواریه ، فجاءته جاريةٌ بدیعة الحسن باهرةُ الجمالِ .

وقالَ لها : رغبتُ فی أن یقیم ابنی عندک فی قصر الجوارى سبعةَ أيامٍ كاملةً ، نخذیه معک من الآن ، ولا تسمحی له بمغادرة القصر لحظةً واحدةً ،

حتى تنتهى الأيام السبعة . وكان فى ذلك القصر أربعون حجرة ، وفى كل حجرة عشر جوار حسان ، ومع كل جارية آله من آلات الطرب ، إذا ضربت عليها بيدها رقصت لها الأشجار والأبنية ؛ يحيط بهذا القصر حديقة غناء ، كثيرة الأشجار والأزهار ، تجرى من تحتها الأنهار .

أخذت الجارية ابن الملك معها فرحة به لأنها كانت تحبه ، وبعد ليلة من مقامه عندها بدا له منها ما أنكره وأغضبه ، إذ كاشفته بحبها ، وأرادته لنفسها ، فأنذرها ، أنه مبلغ والده بعد خروجه ما قالت ورغبت ، ولا جزاء لها عنده إلا القتل ، ليظهر هذا القصر من ذاتها ، ولتكون عبرة لمثيلاتها .

خافت الجارية على نفسها من الملك وتوقعت أن يستمع لقول ابنه فيها ، فعزمت أن تكيده ، وأن تتغدى به قبل أن يتعشى بها ، وذهبت إلى الملك باكية ، فظن شراً أصاب ابنه وسألها عنه ، فقالت :

أنقذنى من ابنك يا سيدى ، فقد أراد بى السوء ، وأنذرني قتلاً عاجلاً إن لم أطاوعه ؛ فثارت ثائرة الغضب الأليم فى نفسه ، حتى أغلق باب الصواب فى وجهه ، وقال على الفور لجاريته :

ارجعى إلى قصرِك آمنَةً ، ولا بدّ من قتله ، فأبى فى غنى عن ذرية تنهك الحرمات ، وتجرّح فى قصرى السيئات .

ثم دعا إليه وزراءه ، وأخبرهم ما كان من ابنه ، وأمرهم أن ينصرفوا ليقتلوه ليظهر القصر من عبثه ، فليس من التقوى فى شيء أن تُذبح

الفضيلة على فراش من حنان الأبوة .

وقد قال الله تعالى لنوح عليه السلام في ابنه وقد عصاه :
 « يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ
 لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ »

انصرف الوزراء واجتمعوا في مكانهم يتشاورون فيما يفعلون .
 فقال أحدهم : إن الملك أمرنا بقتل ابنه في ثورة بالغة من غضبه ، فإذا
 هدأت ثورته تغير رأيه في ابنه ، وندم على قتله ، وحملنا تبعة التعجيل به ،
 وقال آخر : ومن ينجينا من الملك إن بان له خطؤه في حكمه وندم
 على قتله بعد أن وهبه الله له على اليأس والكبر ؟

وقال آخر : لا يُعْجِزُنَا تدير حيلة نحمل بها ابن الملك من كيد هذه
 الجارية ، ولا ينبغي أن نكون في يدها أداة لقتل نفس حرم الله قتلها
 إلا بالحق .

وقال الوزير الأول : وَجِبَ عَلَيْنَا حِينَئِذٍ أَنْ يُحَاوَلَ كُلُّ مَنْ إِرْجَاعِ الْمَلِكِ
 عَنْ حُكْمِهِ ، وَإِبْطَالِ مَادْبِرَتِهِ الْجَارِيَةِ مِنَ النِّكَايَةِ بِابْنِهِ ، وَسَأَبْدَأُ بِمَحَاوَلَتِي
 فِي ذَلِكَ غَدًا عِنْدَ الْمَلِكِ ، ثُمَّ انْفُضَّ مَجْلِسُهُمْ وَهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى هَذَا الرَّأْيِ .
 ذهب الوزير الأول إلى الملك واستأذنه أن يتحدث إليه في شأن ابنه
 فأذن له ، فقال الوزير :

لو أن لك مائة ولدٍ ما كان لك أن تأمر بقتل واحدٍ منهم لقول جارية
 لم يتبين صدقها من كذبها ، فكيف طاوعتك نفسك على قتل ابنك الواحد

الذى رُزِقَتْهُ عَلَى يَأْسٍ وَكِبَرٍ ، لَأَن جَارِيَةً رَمَتْهُ بِمَحَاوِلَتِهِ الْخَطِيئَةَ ، وَقَدْ تَكُونُ الْجَارِيَةُ فِي ذَلِكَ وَاشِيَةً كَاذِبَةً ، وَأَرَادَتْ أَنْ تَكِيدَ لَابْنِكَ لِأَمْرِ فِي نَفْسِهَا ، وَمَا أَكْثَرَ كَيْدَ النِّسَاءِ ، وَمَا أَظْهَرَ فِي بَعْضِ الْمَوَاقِفِ ، وَمَا أَجْمَلَ فِي بَعْضِهَا الْآخَرُ ؟ !! وَسَأَقْصُ عَلَى الْمَلِكِ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ إِنْ أَدْنَى لِي .

فَقَالَ الْمَلِكُ : قُلْ مَا شِئْتَ .

فَقَالَ الْوَزِيرُ :

كَانَ مَلِكٌ مَغْرَمًا بِالنِّسَاءِ وَالْقُرْبِ مِنْهُنَّ ، فَرَأَى جَارِيَةً فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ مَدِينَتِهِ ، أَعْجَبَهُ حُسْنُهَا وَأَغْرَمَ بِهَا ، فَسَأَلَ عَنْ صَاحِبِ هَذَا الْبَيْتِ فَقِيلَ : إِنَّهُ لَوْزِيرُكَ فَلَانَ ، فَدَعَا الْوَزِيرَ إِلَيْهِ وَكَلَفَهُ عَمَلًا خَارِجَ الْمَدِينَةِ ، يَسْتَغْرِقُ مِنْهُ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً ، وَاتَهَزَّ الْمَلِكُ فَرَصَةَ غَيْبَتِهِ ، وَذَهَبَ إِلَى الْجَارِيَةِ الَّتِي أَعْجَبَتْهُ فِي بَيْتِهِ .

فَلَمَّا رَأَتْهُ عَرَفَتْهُ وَرَحِبَتْ بِهِ وَاسْتَقْبَلَتْهُ اسْتِقْبَالًا يَلِيقُ بِهِ ، فَزَادَ ذَلِكَ اللَّقَاءَ الْكَرِيمَ رَغْبَتَهُ فِيهَا ؛ ثُمَّ سَأَلَتْهُ فِي أَدَبٍ وَاحْتِرَامٍ :

لَمْ يَهَذَا الْقُدُومُ الْمِيْمُونَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ ؟ فَقَالَ :

رَأَيْتُكَ فَأَحْبَبْتُكَ ، وَجِئْتُ لِأَطْفِئَ لَهَيْبَ الشُّوقِ إِلَيْكَ بِالْقُرْبِ مِنْكَ .

فَقَالَتْ :

تِلْكَ مِثَّةُ كِبَرِي ؛ وَهَذَا حِظٌّ عَظِيمٌ ؛ أَنْ أَحُلُّ فِي قَلْبِ الْمَلِكِ هَذَا الْمَحَلِّ الْكَرِيمِ ، وَلِهَذَا فَأَنْتَ ضَيْفِي الْيَوْمَ ، وَلِيَأْذَنْ لِي الْمَلِكُ أَنْ أَقُومَ بِإِعْدَادِ

الغداء ، ليكون بعد أن يَطمعهُ في حلِّ مما يشاء .

فأذن لها والفرحُ بها يُضِيءُ صَدْرَهُ ، ثم أَحضرتْ إليه كتاباً وقالت :
أرجو أن يتسلَّى سيدي بالقراءة في هذا الكتاب حتى أَفرُغَ مِنْ
إعداد الطعام ، فقال لها :

ذلك منك حسنٌ وجميل . وجعلَ يقرأ الكتابَ فإذا كلُّه زَجَرُ عن
الرِّذائلِ ونهى عنها ، وترغيبٌ في الفضائلِ وحثٌّ عليها ، فتضاءلت كبرياؤه ،
وقَفَرَتِ نائرُ الهوى في نفسه ، وزاد إقبالاً على قِرَاءَةِ الكتابِ حتى دُعِيَ إلى
الجلوس على المائدة ، فوجد تسعينَ صَحْفَةً مملوءة بالطعام ، فجعلَ يأكلُ من
هذه ومن تلك ومن هذه ومن تلك ، ثم قال للجارية في عجبٍ ودهشة :
أرى الطَّعامَ مختلفاً ولكن طعمه واحد ، فكيف كان ذلك ؟

فقالت : أكرم الله الملك وحفظه ، ذلك مثل ضربته للاعتبار والعظة .
فقال : أيِّدني عن مُرادِك . فقالت : أَصلح الله أمر الملك ، إن في قصرِك
تسعينَ جاريةً مختلفةً في القوام والجمال ، متباينةً في التأثير على النفسِ ،
واستمالة القلب إليهن ، ولكن الغايةَ واحدة ، لا تختلف في جارية عن
أخرى . فحجَّل الملك وخرج دون أن يمسه بأسوءٍ وذهب إلى قصره ،
وقد نسي عندها خاتمه تحت الوسادة ، وهي لا تعرفُ من أمر الخاتم شيئاً .
وبينما هو جالس في قصره جاءه الوزيرُ صاحب الجارية ، وبلغه ما فعله
في غيبته ، ثم حيَّاهُ وانصرفَ إلى منزله .

لقي الوزيرُ خاتم الملك تحت الوسادة ، فاغْتَاطَ وكظم غيظه في نفسه ،

وحفظ الخاتم عنده ، واختصم الجارية سنةً كاملةً ، وهي لا تعرفُ سبباً
لاعتزالها وغضبه .

فأرسلت الجارية إلى أبيها ، وقصت عليه أمر الوزير معها ، وهجره
إيّاها سنةً كاملةً دون سبب تعرفه ، فقال لها : سأشكوه إلى الملك في
حضرتة .

وبينما كان الوزير في حضرة مليكه دخل والد الجارية بعد أن أذن له
الملك ، فقال : أيّد الله الملك ، لى روضة أنشأتها بيدي ، وتعهّدتها بالإتفاق
والرعاية حتى طاب جناها ، فأهديتها لوزيرك هذا فلان ، فجعل يأكل من
ثمارها ما طاب له الأكل ، ثم هجرها وأهمّلها حتى ذهب روتقها وحال
شكلها .

ففهم الوزير ما يرمى إليه وقال : أيها الملك ، صدّق هذا في قوله ، وقد
كان بوّدى أن يدوم أكلى من ثمارها والمحافظة عليها ، ولكنى دخلتها
يوماً فرأيت أثر أسدٍ فيها ، نخفت على نفسى وهجرتها . فأدرك الملك
ما يرميان إليه ، وفهم أن الخاتم الذى نسيه تحت الوسادة هو أثر الأسد
الذى يقصده الوزير ، فقال : دخلها الأسد وحشاً وخرج منها ملكاً كريماً ،
وما مسّ أحداً فيها بسوء ، ولا تزال أطهر من ماء السحاب ، فارجع
إليها آمناً مطمئناً ، فقال الوزير : سمعاً وطاعة ، ورجع إلى جاريته فأصلح
من شأنها وعاش معها عيشة مريحة هنيئةً ، وقصت عليه ما فعلته بالملك ،
وكيف بدّلت من حاله ، وأخرجته من بيتها إنساناً فاضلاً طيباً .

قال الوزير الأوّل : وهذا من مكرهنّ الحسن الجميل ، وسأذكر
للك الملك الحكاية الآتية :

كان تاجرٌ كثير الأسفار ، والغيبة عن بيته في شئون تجارته ، وله
زوجةٌ جميلةٌ شديدة الغيرة عليها ، ولأجل أن يطمئن قلبه في غيبته اشترى
طائرًا يخبره بما يجرى في بيته إذا ما حضر ، وفي مرة من مرات سفره ،
أحبت زوجته غلامًا ، وكان يأتي إليها في بيته وتكرمه ، فلما حضر التاجر
قال الطائرُ له :

كان غلام تركي يدخل على زوجتك ، فتفرّح بقدومه وتكرمه .
فأخبر زوجته بما قال الطائر وهم أن يقتلها جزاء خيانتها .

فقالت له : اتق الله في زوجك ودينك وعقلك ، كيف تظلم نفسك
بقتل نفس بريئة ؟ ! وكيف ساع لعقلك أن يصدّق طائرًا لا يعي ولا
يفهم ، وإن أردت أن أُبين لك كذب الطائر على الناس واقتراءه ، فتم
الليلة عند أحد أصحابك ، ثم اسأله في الصباح عما جرى ، وانظر ما يقول ،
فقال : ذلك رأى جميل ، وإن بان صدقه فإني قاتلك . فقالت : وحينئذ
لا تكون ظالمًا .

ولما جاء الليل ذهب التاجرُ إلى أحد أصدقائه وبات عنده ، أما زوجته
فإنها غطت قفص الطائر بقطعة من الجلد ، وجعلت تصبّ الماء فوقها صباً
يشبه نزول المطر ، ثم جعلت ترسل ضوء المصباح إلى الطائر في القفص
وتخفيه كأنه برق يلمع ، ثم جعلت تُدير الرّيحى مُحدّثة بها دويًا يشبه

دوى الرعد ، ودامت على هذه الحال الليلة إلّا أقلّها .

ولما قدم زوجها في الصباح قالت له : إسأل الطائر عما جرى ، فلما سأله قال : ومن كان يستطيع أن يسمع أو يبصر أو يتحرك في تلك الليلة التي هطل مطرُها ولمع برقها واشتد رعدُها ؟ فقال له : ما شعرنا هذه الليلة بمطر ، وما رأينا برقًا ، وما سمعنا رعدًا ، فقال الطائر : ما أخبرتك إلّا بما شاهدتُ وسمعتُ ، فقال : كذبت وافتريت ، وربما كنت تخبرنا بما تراه في منامك ، ثم ذهب إلى زوجته ليتعذّر لها ويسترضيها ، فقالت : لن أرضى حتى تذبج هذا الطائر الكذاب ، فقام إليه وذبحه .

وبعد بضعة أيام رأى التاجر نفسه الغلامَ التركيَّ خارجًا من بيته ، فذهب إلى زوجته وسألها : هل جاءك أحد هنا ؟ فقالت : لا ، لم يدخل على أحدٍ منذ خرجت إلى أن رجعت بالسلامة .

فندم التاجر على ذبحه الطائر ، وعلم أن زوجته كاذبة خاطئة ، فذبحها وأقسم ألا يتزوج امرأة بعدها ، مخافة أن يقع في امرأة خائنةٍ مثلها . قال الوزير الأول للملك : وهذا مثل آخر من كيد النساء ، فلا تعجل بالحكم على ابنك ، فإن العجلة لا تورث إلا ندامةً وحسرةً ؛ فأعرض الملك عن قتل ابنه وسكت .

عاشت الجارية بما كان من الوزير الأوّل، فجاءت مَلِكها في اليوم التالي وقالت :

كيف ضيّعت حقّي وأهملتَ شأنِي؟! ألا أنى جارية وخصيمي ابن ملك؟!!

لقد تهامس الناس أنك أبرمت أمراً ثم تقضه وزيرك الأول ،
 ماس بكرامتك ، ومُضعِفُ طاعة الناس لك ، فطاعة الملوك في إم-
 على تنفيذ ما أمروا ، وقد عرفك الناس بالعدل ، وأنهم أمام عدلك -
 فأنصفني من ابنك ، فقد قيل : إنَّ رجلاً قصَّاراً ينظف الثياب
 شاطئ دجلة ، وكان يأخذ ابنه معه إلى دجلة كل يوم ، فيسبح في
 حتى ينتهي أبوه من تنظيف الثياب .

وذات يوم تعب وهو يسبح فغرق ، فنزل أبوه إليه لينقذه ، فتعلق
 بعنقه ، وغرقا معاً في النهر ، وإن لم تنصفي فإني أخشى عليك وعلى
 سوء العاقبة .

فأثر في الملك قولُ الجارية وقال : سأقتل ابني إنصافاً لك . ثم انصر
 وحضر إلى الملك الوزير الثاني ، فقال : إن ابنك وارثُ ملكك ،
 امتداد لحياتك ، وليس من الهين أن تقتله بوشاية قذفت بها جارية ،
 ندمت كما ندم التاجر الذي مكّرت به العجوز ، فقال الملك : وكيف
 ذلك ؟ فقال الوزير :

كان تاجرٌ أنيقٌ في ملبسه ومأكله ، سافر إلى بعض البلاد ،
 هو يمشي في سوقها عرضت عليه امرأة عجوزٌ رغيفين ليشتريهما بثمن ز
 فاشترهما ورجع إلى منزله فأكلهما . وكذلك فعل في الأيام التالية
 عشرين يوماً ، ثم غابت العجوز وبحت عنها فلم يجدها ، وذات يوم
 سائراً في شوارع المدينة فلقيا ، وسلم عليها ثم سألها عن سبب غي-

فقلت : « لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَل لكم تَسْوِئَتُكُمْ » ، فقال : لا بد أن تذكرى سبب غيبتك ، فقلت : كنت أخدمُ إنساناً مريضاً بالحكة في ظهره ، وكان طبيبه يأخذ الدقيق ويمجّنه بالماء والسمن ويضعه على مكان الألم مدّة الليل ، وكنت في الصباح آخذ هذا الدقيق وأصنع منه الرغيفين ، وأبيعهما في السوق لك أو لغيرك ، ولما مات ذلك الرجل انقطع عني الدقيق فانقطعت عن صنع الرغيفين ، فاشمأزّ التاجر وتقرّز ، وجعل يتقايأ حتى مرض ومات ، وذلك بما فعلته العجوز من المكيدة للرجال ، ومن الجائز أن تكون الجاريةُ سالكة سبيل العجوز في كيدها لابنك الذي يخلفك في ملكك . فرجع الملك عن قتله .

وعامت الجارية ما قاله الوزير الثاني فجاءت إلى الملك وقالت : إن من الوزراء وزراء سُوءِ ظاهريهم نصيح وهداية ، وباطنهم مكر وغواية ، والواثق بهم كراكب البحر إن سلم من الفرق لم يسلم من المخاوف ، وليكن فيما أقصه عبرة ، فقد كان لملك من الملوك ولدٌ يحبه ويكرمه أكثر مما يحب ويكرم بقية أولاده ، فطلب إلى أبيه أن يخرج للصيد والقنص فلبي رغبتَه ، وأمر أحد وزراءه أن يصحبه ويقوم بكل ما يحتاج إليه أيام صيده وقنصه .

(٢)

وخرج الوزير في صحبة ابن الملك ومعه الخدم والغلمان وما يحتاجون إليه وساروا حتى كانوا في أرض عُشْبها كثير ، وماؤها غزير ، والصيدُ

فيها سهل يسير ، فأقاموا فيها أياماً على خير ما يحبون من عيشة هنيئة ،
وذات يوم رأى ابن الملك غزالةً أعجبتته فقال للوزير :
إني راغبٌ في صيد هذه الغزالة .

فقال له : اركب جوادك واتبعها فعمسى أن تدركها قبل أن تختفي عنك
في الصحراء .

أرعى ابنُ الملك العنان لجواده من خلفها ، وكان كلما جدَّ في طلبها
أمعنت في الفرار مسرعةً كأنها الريح ، حتى صعدت في مكانٍ مرتفعٍ وعُرِّ،
فوقف أسفاً لأنه لم يدركها ، وكانت الشمس قد غربت ، وضرب الظلام
قبتة على الأفق ، وحاول الرجوع فعميت في وجهه السُّبل ، وجعل يسير
على غير هدىً يخوض بجواده ظلام الليل وسكونه ، ومخاوفه وأخطاره ،
حتى طلع عليه الضُّحى فإذا به أمام مدينة عالية البنيان ، ولكنها خالية من
السكان ، لا يُسمع فيها إلاَّ صيِّق البُوم والغربان ، فوقف حائراً مدهوشاً
من أمر هذه المدينة .

فالتقت نظرة من نظراته بجارية بالغة الحسن والجمال ، وهى تبكى
بجوار جدارٍ من جُدرانها ، فدنا منها وسألها :
مَنْ أنت أيتها الجارية ؟
فأجابت :

أنا بنت التميمة ابنة الطباخ ملك الأرض الشهباء ، اختطفني عفريت
من الجن ، وطار بي ، فأصابه شهابٌ فاحترق ، وسقطت ها هنا ، وقد أُلح

بى الجوع والعطش حتى يئست من الحياة ، فلما رأيتك تفتحت أمانى
أبواب الأمل فيها .

فأشفق ابن الملك بها وأردفها على جواده ، ووعدا إن رده الله إلى
أهله سالمًا أن يرجعها مكرمةً إلى أبيها وأُمِّها .

ثم سار يتلمس الفرّج من هذا الضيق الذى نزل به ، وما كاد يخطو
بهما فرسه قليلًا حتى استأذنته أن تنزل لقضاء حاجة بجوار حائط من
حيطان المدينة ، فوقف حتى نزلت وتوارت فى الحائط ، وبعد لحظة
رجعت إليه فى أبشع صورة ، فاقشعرّ بدنه ، واضطربت أفكاره ،
وتبدّلت حالته ، ثم وثبت على جواده من خلفه ، وقالت :

يا ابن الملك ، مالى أراك فى مخافة غيّرت حالتك ؟

فقال : تذكرت أمرًا أفزعنى ، وطار من أجله لُبِّي .

فقالت : استعنْ عليه بجيوش أيبك .

فقال : ذلك أمر لا تنالُ منه الجيوش وإن كانت ملء الفضاء .

فقالت : استعن عليه بمال أيبك !

فقال : ذلك أمر لا تسد أطماعه مالٌ وإن كثر .

فقالت : إن لكم إلهًا يَرى ولا يَرى وهو الذى يجعلُ للمتقين من
عباده مخرجًا من كل ضيق .

فقال : نعم ، هو إلهنا الذى نعبدُه ولا نعتمدُ إلا عليه .

فقالت : ادعُه أن ينجيك منى .

فتوجه ابن الملك بقلبه إلى الله ورفع بصره إلى السماء ، وقال : اللهم إني استعنت بك على ما أفزعني ، وألقى الرعب في صدري ؛ فسقطت على الأرض وقد اشتعلت النار فيها حتى أحرقتها .

فحمد الله تعالى وشكر له فضله ، وما زال سائراً وهداية الله تحذوه وتقود جواده حتى أشرف على مدينة أبيه .

وما حصل ذلك لابن الملك إلا برأى وزيره الذي لم يُخلص له النية ، ولم يُحسن له الطوية . وقد ذكرتُ ذلك حتى تكون منهم على حذر مما يقولون .

فقال الملك : سمعت قولك وسأقتل ابني كما قلت .

وجلس الوزير الثالث إلى ملكه وقال : عجبت من أمر هذه الجارية الساعية في قتل ابن ملكها وسيدها ، في أمر هيّئ ، وهونّه أكثر مما هو هيّئ أنه لم يؤيد بحجة ولا بينة ، وما عرفت أن أهل قريتين أفنى بعضهم بعضاً من أجل نقطةٍ من عسل .

فقال الملك : وكيف كان ذلك ؟ فقال الوزير :

اعتاد صياد أن يخرج إلى البرية للصيد ، فدخل يوماً من أيام صيده كهفاً في جبل ، فوجد فيه حفرة مملوءة عسلاً ، فلأمنه قربةً كانت معه وحملها إلى المدينة ومعه كلبه ، فوقف أمام دكان لتاجر زيت وعرض عليه العسل ليشتريه ، فلما رآه أعجبه واشتراه ، وسقط بعض العسل من قرب الصياد وهو يصبّه في وعاء التاجر ، وكان له قط نجاء إلى العسل يشمه ،



فوثب عليه كلب الصياد ، فقتله ، فضرب التاجر الكلب ضربةً قضت عليه ، فلكرز الصياد التاجر لكزةً أسقطته قتيلاً ، وكان لكلٍ منهما قرية ، فعلم أهل القريتين بما جرى بين الصياد والتاجر ، وثارَت الفتنة بينهم ، فجعلوا يقتتلون حتى فنى منهم خلقٌ كثير ، وكان سبب ذلك بعض العسل الذى وقع على الأرض ؛ وتلك جاريةٌ أرادت أن تجعل من الحبة قبةً وأن تخلق من الباطل حقاً ، فلا تطعمها ولا تتبع أهواءها .

فقال الملك : لست بقاتله .

تألمت الجارية من رجوع الملك فى قوله فذهبت إليه وقالت : إذا كنت قد آيت أن تنصرنى فإننى رباً ينصرنى عايك ، كما نصر ابن الملك على وزير أبيه .

فقال : وكيف كان ذلك ؟

فقالت .

كان لملك من الملوك الأولين ابنٌ واحدٌ وليس له غيره وكان قرّة عينه فى دنياه ، فلما بلغ رشدهُ زوّجه من ابنة ملك آخر ، وكان لهذه البنت ابن عمٌ يحبها ويسعى فى زواجه منها ، وخطبها فعلاً من أبيها ولكنها أبت أن تتزوج من ابن عمها ، فغاضه ذلك منها ومن ابن الملك الذى تزوّجها ، ودفعه الغيظ إلى تدبير مكيدة تعكر عليهما صفو حياتهما ، إن لم يتمكن من قتل ابن الملك ، فعمل على أن يتصل بوزير أبيه ، ليساعده فى تدبير مكيدته ، فجعل يرسل إليه الهدايا تباعاً حتى تمكن من نفسه ، وعقد بينه

وبين الوزير صلة صداقة متينة ، جعلته يُفَضِّى إليه بما فى نفسه ، ورجاه فى أن يحتال فى قتل ابن ملكه أو يحول بينه وبين دخوله بابنة عمّه ، فقال الوزير : سأ كفيك شر ابن الملك ، فاصبر ولا تَعَجَلْ ، وستكون ابنة عمك لك دون أحدٍ سواك .

وكان قد بعث الملك ابنه إلى والد الفتاة لإتمام أمر الزواج ، وبعث معه كثيرًا من الفرسان والهدايا ، وجعله فى رعاية وزيره هذا الخائن الذى رضى أن يبيع نفس ابن ملكه بثمنٍ بخسٍ من متاع الدنيا .

سارَ الوزير فى موكب ابن ملكه ، وفى نفسه من السوء والكيد له ما فيه ، حتى أشرفوا على جبل يعلم الوزير أن به عين ماء تعرف بالزَّهراء ، وكان كل من شرب من مائها من الرجال ارتد أنثى ، فأمر أن ينزلوا عند هذا الجبل للراحة ، وبعد قليل من نزولهم أشار الوزير على ابن الملك أن يُريه فى هذا الجبل عينًا جميلة ، ورغب ابن الملك فى رؤيتها ، فركبا جواديهما وسارا حتى وصلا إليها ، وهناك نزل ابن الملك عن جواده ، وكان قد أحس عطشًا فشرب من مائها فإذا به قد تحول إلى أنثى ، فصرخ ابن الملك صرخةً عاليةً تنبئ عن ألمٍ عظيم ، ففزع الوزير إليه وقال له : ماذا أصابك ؟ فأخبره بما أصابه ، فأظهر الوزير من الكآبة والحزن ما أخفى سريره ، ودعا الله أن يصرف عنه السوء الذى حلَّ به ، وقال : الأمرُ لك فأشيرَ علىَّ بما تُريد ، فإنى لك خادمٌ مُطيع .

فقال ابن الملك : ارجعْ إلى أبى وأخبره بما أصابنى ، فإنى لن أبرح

هذه العين حتى يكشف الله عنى هذا البلاء أو أموت ، وكتب الولد إلى أبيه رسالةً شرح له فيها حالته ، فأخذها الوزير ، وعاد مسرعاً إلى أبيه وناولها رسالة ابنه وشرح له ما أصابه ، فحزن الملك ، واستنجد بالحكام والمنجمين فما استطاعوا أن يفعلوا شيئاً ، وأرسل الوزير إلى ابن عم الفتاة يُبشِّرُ بما أصاب ابن الملك ففرح فرحاً عظيماً ، وأشرق في صدره الأمل في الزواج من ابنة عمه ، ومنح الوزير هدية قيّمة ، شاكرًا له ما فعله .

أقام ابن الملك عند تلك العين ، مُتَّجِهاً إلى الله بقلبه ، متوسلاً إليه أن يدفع عنه ما نزل به من البلاء ، وبينما هو جالس يدعو الله في سرّه أن يُخلِّصَهُ من محتته إذا فارس يبدو عليه أنه من أبناء الملوك يقف بجواره ويسأله :

من الذى جاء بك إلى هذا المكان أيها الغلام؟ فشرح له ابن الملك قصته ، وإن الحزن يكاد يحبس نفسه في صدره ، فرثى الفارس لحاله وقال : ما رماك بهذه الداهية إلا وزير أليك ، لأن هذه العين لا يعلم بها إلا رجل واحد ، قم معي أيها الغلام فأنت ضيفي الليلة ، فقال ابن الملك : ومن أنت حتى أنظر في مسيرى معك ؟ فقال الفارس : أنا ابن ملك من ملوك الجان ، وأنت ابن ملك من الإنس : فتعال معي ، ولا تهين ولا تحزن ، فإن تنفيس هذه الكربة عنك هيّن علىّ ، فسار معه إلى منتصف الليل ، ثم قال له ابن ملك الجن : أتدرى كم قطعنا في سيرنا هذا ؟ فقال : ومن يدرينى وأنا مشغول بما أصابنى ؟ ! فقال له : لقد قطعنا مسير سنة للمسافر المجدّ ،

فقال ابنُ الملك : وكيف أرجعُ إلى أهلي ؟ ! فقال ابنُ ملك الجنِّ : بعد أن تبرأ من محتك فعلى أن أرجمك إلى أهلك في لمح البصر ، فلا تُزعجك هذه الغربةُ البعيدةُ الساحقةُ . فاطمأنَّ ابنُ الملك وحييَ ميّت الأمل في نفسه ، وشكر الله تعالى الذي قيّض له من يكشف عنه هذا البلاء .

واعترضهما في طريقهما أرضٌ مخضرةٌ ذات أشجار باسقة وأنهار جارية أقيم في وسطها قصرٌ منيفٌ ، تبدو عليه أمارات الملك الواسع والسلطان القاهر ، فلبثا فيه نهارهما ، ولما جاء الليل ركب ابن ملك الجن جواده ، وركب ابن ملك الإنس معه ، وجدَّ بهم السيرُ في ظلام الليل حتى طلع الصبحُ ، وكانا قد أشرفا على أرض سوداء كثيرة الأحجار والصخور ، فسأل ابنُ ملك الإنس عنها ، فقال له : هذه أرضٌ يُقال لها الدُّهْماءُ ، وهى لملك من ملوك الجن يسمّى ذا الجناحين ، ولا يستطيع أحد أن يدخلها إلا بإذنه ، فانتظرنى هنا حتى أستاذنه وأعود إليك . ثم رجع إليه بعد ساعة ، وسارا في هذه الأرض حتى كانا عند عَيْن من الماء في جبل أسود ، فأمره ابن ملك الجن أن ينزل ويشرب من مائها ، فلما شرب رجع ذكراً كما كان بقُدرة الله تعالى . ففرح فرحاً عظيماً ، وشكر له جميل معروفه وسأله عن هذه العين ؛ فقال : هذه تسمى عَيْن النساء ، لا تشرب منها امرأة إلا صارت رجلاً ، ثم رجع ابن ملك الجن به إلى أرضه وسأله : هل يحب أن يعود إلى أهله ؛ فأبدى ابن الملك سروره ورغبته في أن يُعَجَّل بالعودة ، فنادى ابنُ ملك الجن عبداً من عبيده ، يسمّى راجزاً ، وقال له :

احمل هذا الفتى إلى زوجته وأيها على أن يصل إليهما قبل الصباح ؛ فقال العبد : سَمْعاً وطاعة ، وغاب قليلاً ثم رجع عِفْريتاً ، فركب ابنُ ملكِ الإنس على عاتقه وسلم شاكرًا حامدًا ، وطار به العِفريت حتى وضعه فوق قصر الملك والد زوجته قبل طلوع الفجر ، وقال له : هذا قصر زوجتك الذى أمرت أن أحملك إليه ، ثم تركه إلى أرضه راجعاً .

ولما بان ضوء النهار نزل من القصر فلقىهُ حموهُ الملك وسلم عليه وفرح به ، وقال له : كيف جئت الليلة ؟ إني أراك آتياً من فوق القصر ؛ فقال له : ذلك تقدير العزيز العليم .

أقام الملك الولائم والأفراح ، ودخل ابن الملك بزوجه ، وبعد سبعة أيام استأذن حماءه فى الرحيل هو وزوجته ، فودَّعهما الملك أكرم وداع ، واستقبلهما أبوه أكرم استقبال وأعظمه .

قالت الجارية :

وكذلك انتصر ابنُ الملك على وزير أبيه الخائن الماكر ، وأرجو ألا تسمع قول وزرائك حتى ينصرك الله عليهم ، كما أرجو أن تُنصفنى من ابنك ، فقال الملك : سأقتله جزاء فعلته .

ثم جاء الملك وزيره الرابع وقال له : بلغنى أن الجارية لا تزال طالبة رأس ابنك ، وأرى ألا تعجل بِمُحكَمِك ، فقد تكون الجارية خادعة غاشة فيصيبك منها ما أصاب الرجل الذى غشَّته زوجته ؛ فقال الملك : وكيف كان ذلك ؟ فقال الوزير :

كان فارس من حرس الملك يحبُّ امرأةً فبعث إليها غلامه برسالة ،
 وحينما كان الغلام جالساً معها طرق الباب سيده الذي أرسله ، فخبأت
 الغلام في مكان من البيت وفتحت لسيده الذي يحبها الباب ثم أغلقته
 بعد أن دخل ، وبعد لحظة من دخوله طرق الباب زوجها ، فسألها : من
 الطارق ؟ فقالت : إنه زوجي ، فقال لها : وما العمل الآن ؟ فقالت :
 لا تخف ، وما عليك إلا أن تشهر سيفك ، وتقف في هذا الدهليز ، ثم
 استمني بما تشاء من القول غاضباً ثائراً ، فإذا دخل فترك المنزل ، ودعني
 غير خائف على ، ففتحت الباب لزوجها ودخل ، وفعل الفارس ما أمرته
 به ثم انصرف ، فسألها زوجها عن هذا فقالت :

ما أجل هذه الساعة التي أتيتني فيها ، وما أبركها !! فقد نجيت من القتل
 نفسك مؤمنة بريئة ؛ وذلك أني كنت جالسة في بيتي فدخل على غلام
 يلهث من التعب ، وقال :

اعتقيني ياسيدي ممن يريد قتلي ظمناً ، فخبأتها في الحال في مكان من البيت ،
 وإذا بهذا الفارس قد دخل على شاهراً سيفه ، فطلبه مني فانكرته ،
 فأخذ يشتمني ويهددني ، وما صرفه عني إلا قدومك في هذه الساعة
 المباركة ، فقال لها : أحسنت صنعاً ، وجزاك الله خيراً ، ثم ذهبت مع
 زوجها إلى خبأ الغلام ، فقال له الزوج : اطلع من خبئك أيها الغلام ،
 فقد نجاك الله من القتل على يد زوجتي الصالحة ، فطلع الغلام خائفاً ،
 وجعل الزوج يهدئ روعه ، ويذهب عنه خوفه ، وودعه إلى سبيله .

قال الوزير : وهذه صورة من صور كيد النساء ، وأخشى أن تكون الجارية قد كادت لابنك لأمر في نفسها ، ومن الحق أن تصبر حتى يتبين الأمر ، ويظهر السر ؛ فرجع الملك عن قتل ابنه ، متأثراً بما سمع من وزيره . جاءت الجارية إلى الملك هذه المرة وفي يدها قدح من السم ، وقالت : إِمَّا أَنْصَفْتَنِي مِنْ ابْنِكَ وَإِمَّا شَرِبْتُ هَذَا السَّمَّ وَكُنْتُ مَسْئُولًا عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَهَؤُلَاءِ وَزَرَائِكُمْ يَتَّهِمُونَنِي بِالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ وَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا أَمَكْرَ مِنْهُمْ ، أَمَا سَمِعْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ حَدِيثَ الصَّائِغِ وَالْجَارِيَةِ ؟ فَقَالَ لَهَا : حَدِّثِينَا بِمَا تَعْرِفِينَهُ عَنْهُمَا ، فَقَالَتْ :

كَانَ صَائِغٌ مُوَلَّعًا بِالتَّصْوِيرِ ، فَزَارَ يَوْمًا صَدِيقًا لَهُ ، وَرَأَى عَلَى جِدَارِ حَجْرَتِهِ صُورَةَ جَارِيَةٍ لَمْ يَرَ الرِّاءُونَ أَجْمَلَ مِنْهَا ، فَقَالَ الصَّائِغُ : لَقَدْ أَبْدَعَ الْمَصَوِّرُ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ ، وَأَعْتَقَدُ أَنَّهُ مَا صَوَّرَهَا إِلَّا عَلَى مِثَالِ امْرَأَةٍ جِيلَةٍ يَعْرِفُهَا ، فَقَالَ : لَعَلَّهُ ابْتَكَّرَهَا مِنْ خِيَالِهِ ، فَقَالَ الصَّائِغُ : إِنْ كَانَ قَدْ صَوَّرَهَا عَلَى مِثَالِ امْرَأَةٍ فَإِنِّي أَرْجُو مِنْ اللَّهِ أَنْ يُطِيلَ حَيَاتِي حَتَّى أَرَاهَا ؛ وَأَيْنَ مُصَوِّرُهَا ؟ فَقَالَ : إِنَّهُ فِي بَلَدٍ كَذَا ، فَأَمَرَ صَدِيقَهُ أَنْ يَكْتُبَ إِلَيْهِ لِيُخْبِرَهُ عَنِ الْمَرْأَةِ الَّتِي جَعَلَ صُورَتَهُ عَلَى مِثَالِهَا ، فَكُتِبَ الْمَصَوِّرُ قَائِلًا : إِنَّهَا عَلَى مِثَالِ جَارِيَةٍ مُغْنِيَةٍ لِأَحَدِ الْوُزَرَاءِ فِي بَلَدٍ مِنْ بِلَادِ كَشْمِيرٍ بِالْهِنْدِ .

أَغْرَمَ الصَّائِغُ بَرُوءَةَ الْجَارِيَةِ وَعَقْدَ عَزْمِهِ أَنْ يُسَافِرَ إِلَيْهَا مَهْمَا يَكُنْ مِنْ مَتَاعِبِ السَّفَرِ وَنَفَقَاتِهِ ، وَكَانَ بَعْدَ أَيَّامٍ فِي الْمَدِينَةِ . وَلَمَّا اسْتَقَرَّ مُقَامَهُ فِيهَا

ذهب إلى عطار ليب فطن وجلس معه يتحدث إليه ، فسأله عن ملكهم ، فقال العطار : ملكٌ حسنُ السَّيرِ سليم الطوية ، يُقيم العدل ويحبُّ الرعية ، ولكنه يبغي السحرة بغضاً شديداً ، وإذا وقع واحدٌ منهم في يده رماه في جُبِّ خارج المدينة وتركه يموت فيه صبراً . وسأله عن الوزراء فحدثه بمزايا كل منهم ثم سأله عن الجوارى في قصور الملك والوزراء ، فجعل يحدثه عنهن حتى انتهى إلى الحديث عن الجارية المغنية التي جاء الصائغُ من أجلها وعرف أنها في بيت الوزير فلان . ثم ودَّعه وانصرف ، وأخذ يفكر في حيلة للوصول إلى تلك الجارية .

وفي ليلة ممطرة شديدة الرياح ، ذهب الصائغُ إلى بيت الوزير ، وصعد إلى سطحه في سُلَّمٍ من سلالم اللصوص ، ثم نزل في سُلَّمٍ القصر فوجد الجوارى نائمات كلُّ جاريةٍ على سريرها ، ووجد سريراً من المرمر عليه جارية يشع وجهها نوراً وجمالاً وسحراً ، غطى جسدها بسترٌ مُحَلَّاةٌ بنسيج الذهب ، فقعدها عند رأسها ورأى بجوارِ ساداتها حقاً من الفضة فيه حلَّيها وعقدُها ، فخرج كتف الجارية بسكينٍ كانت معه ، فانتبهت خائفةً ولما رأتَه والسكين في يده خافت أن تصبحَ فيةتها فسكتت ، وقالت له في همسٍ ضعيف : خذْ هذا الحلقَّ والحلِّي الذي فيه ، وأجرني من القتل وأجرُك عند الله ، فأخذ الحلقَّ وانصرف .

وفي الصباح لبس ثيابه وأخذ الحلقَّ الذي فيه الحلِّي ، ودخل على ملك المدينة بعد أن أذن له ، خيَّاً وقال :

إننى من خراسان سمعتُ بحسن سيرتك فجئتُ مهاجراً إلى مدينتك ،
لأنَّهم بعدلك وكرم سياستك ، ولما وصلت المدينة فى المساء وجدت بابها
مُغلَقاً ، فنسيتُ خارج المدينة ، وبينما أنا بين النوم واليقظة رأيتُ جاريتين
إحداهنَّ راكبة مكنسة ، والأخرى راكبة مروحةً ، فظننت أنهما
ساحرتان ، ودنت إحداهما منى ورفستنى برجلها ، وأوجعتنى بضربة من
ذنب ثعلب فى يدها ، فدفعتنى الغيظ إلى أنى ضربتها بسكين كانت معى ،
فجرحتها فى كتفها ، فجرت قدامى هاربة ووقع منها وهى تجرى هذا الحقُّ
بما فيه ، فأخذتهُ وفتحتهُ فوجدتُ فيه هذا الحُلَى النفيس ، وقد جئتُك
لأعلمك أمر هاتين الساحرتين ، ولأعطيك الحقَّ الذى وقع من إحداهما ،
إذ ليس لى فيه حاجة لأنى رجل مهاجر ، وقد زهدت فى الدنيا وزينتها ؛ ثم
ترك الحقَّ واستأذن وانصرف .

فتح الملك الحقَّ وجعل يقلب الحُلَى ويتأمل فيه فوجد عِقداً كان قد
أنعم به الملكُ على الوزير سيِّد الجارية التى جاء الصائغُ من أجلها فدعا
الملك هذا الوزير إليه ، ولما حضر بين يديه ناوله العقد قائلاً : أليس هذا
العقد عِقْدُك الذى أهديته اليك ، فتأمل فيه الوزير وقال : بلى أيها الملك ،
إنه العقد الذى وهبته لى ، وقد أهديتهُ إلى جارية مُغْنِيَةٍ عندى ، فقال
الملك : علىَّ بها الساعة ، فلما أحضرها الوزير أمره الملك أن ينظر فى كتفها ،
هل فيها جُرحٌ أو لا ؟ فنظر الوزير إلى كتفها وقال : إن فيها جُرحاً أيها
الملك . فقال الملك :

صدق الرجل الزاهد في قوله عنها إنها ساحرة ، وأمر الملك أن يلقيها في
جُبِّ السحرة ، فأخذها الجُند والأعوان ورموها في الجُبِّ آخر النهار .

ولما أقبل الليل ذهب الصائغ إلى حارس الجُبِّ وجلس يتحدث معه
حتى مضى من الليل مُثْلَثُهُ ، وحتى آنسَ كلُّ منهما إلى صاحبه ، ثم قال
الصائغ : إن الجارية التي ألقيت في الجُبِّ أمس بريئة مظلومة ، وقصتها
كَيْتٌ وكَيْتٌ ، وهذا كيس به ألف دينار ، نخذه وانتفع به ، وأعطني
الجارية أرحل بها إلى بلادى ، وتكون بذلك قد نجيت من القتل نفساً
بريئة ، فقال الحارس : على شريطةٍ ألاَّ تبیت بها في هذه المدينة وألا تراها
فيها من الآن ، فقال : لك ذلك ، وأخذها الصائغ وذهب إلى بلاده ، بتلك
الحيلة الشيطانية ، فهل رأيت أيها الملك كيداً أعظم من هذا ؟ ! وغداً
أطالبك بحق يوم لا تجزى نفسٌ عن نفسٍ شيئاً والأمرُ يومئذٍ لله ؛ فقال
الملك : سأفِي بحقِّك وأقتل ابني ؛ فحيَّت واستأذنت وانصرفت .

أقبل الوزير الخامس على الملك وقال :

جئتُ مولاي الآن مُذَكِّراً بأن التَّأَنَّى في الأمور لا يُضَيِّعُ على صاحبه
غرضاً ، ولكنه يَمُنِّحُه السلامة ويُمَحِّنُّهُ الزَّلَلَ والنَّدَامَةَ ، وإن أنت عَجِلْتَ
وقتلْتَ ابنك ندمتْ ندم الرجل الذي لم يضحك بقية حياته ، فقال الملك :
وما قصته ؟ فقال الوزير :

كان رجل ثرى يعيش في نعمةٍ سَابِغَةٍ من مال وجوار وخدم ، ومات
مُخْلَفاً أمواله وماترك إلى ابنه الصغير الذي لم يُعَقِّبْ غيره ، ولما بلغ الولدُ

رُشده ، وتولى القيام على ما ورثه أخذ يُبعثه في وجوه الإتقاق ، حلالها وحرامها ، طيبها وخبيثها حتى نفدت الأموال ، وأصبح الغلام فقيراً مُعديماً لا يجد ما يقتات به ، فأخذ يشتغل عند الناس بالأجرة ، يوماً يأخذه هذا ، ويوماً آخر يأخذه ذاك ، وجلس ذات يوم بجانب حائط ينتظر شخصاً يشتغل عنده ، فرَّ به رجلٌ مُشرق الوجه حسن الثياب قدنا منه وسلم عليه ، فرد عليه السلام ، ثم قال الرجل له : أريد أن أستأجرَكَ في عمل يسير ، فقال الشاب : وما ذاك يا عمي ؟

فقال : عندي عشرة شيوخ وليس لنا من يخدمنا ، فهل ترضى أن تقوم بخدمتنا وقضاء حاجتنا ولك ما يغنيك من الأجر ؟ فقال الشاب : رضيت وبالله العون ، فقال الرجل : ولكن لي شرطاً عليك ، فقال الشاب : وما هو ؟ فقال : أن تكتم أسرارنا ، وإن رأيتنا نبكي فلا تسألنا عن سبب بكائنا ، فقال الشاب : رضيت ولك ما شرطت ، فقال الرجل : سر معي يا ولدي على بركة الله ؛ فذهب به إلى دار عالية ممتدة الجوانب فسيحة الرَّحاب ، بها حجرات كثيرة ، وقاعات واسعة بكل قاعة فسقية تُعَرَّدُ عليها أنواع الطيور ، فأدخله الرجل في حجرة فسيحة فُرِشتْ أرضها بالرَّخام الملوَّن ، ونقش سقفها بطلاء من ماء الذهب الوهاج ، وغطَّى رخام أرضها بِبُسْطٍ حريريّة وبرّة ، ووجد فيها عشرة شيوخ يلبسون ثياب الحزن ، وقد جلسوا مُتقابلين باكين ، فعجب الشاب وهم أن يسأل عن تلك الحال ، ولكنه تذكر الشرط فسكت .

أعطى الرجل الشاب صندوقاً به ثلاثون ألف دينار، وقال له : أَتَقَى علينا وعليك من هذا المال، والتزم الأمانة والصدق فيما تُنْفِق . فقال الشاب : وعلى عهد الله أن أكون أميناً لا أَعْتَدُ يدي إلى أموالكم هذه إلا بالحق ، والله هو الوليُّ الحميدُ .

أخذ الشاب يُنْفِق عليهم ويخدمهم مُدة من الزمان ، ثم جاء أحدهم الموت فجُهِزوه ودفنوه في روضةٍ خارج الدار ، وجعل الموت يتخطفهم واحداً بعد واحد حتى بقي منهم ذلك الشيخ الذي استأجر الشاب .

وعاشا معاً مُدة ، ثم مرض الشيخ مرضاً ثَقِيلاً ، ولما يئس الشاب من حياته جلس إليه وقال :

لقد خدمتكم وأَخْسَنْتُ عِشْرَتَكُمْ وَأَكْرَمْتُ صِبْغَتَكُمْ هذه المدة الطويلة ، وما رَضِيتُ أَنْ أَسْأَلَكُمْ عن سبب بكائكم ، وليس لي من أَسْأَلُهُ عما أَبْكَأكم إلا أنت ، وعَزِيزٌ عَلَيْكَ أَنْ تَرْحَلَ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ ، وتتركني في حيرة من أمر هذا البكاء ، فقال الشيخ :

يا ولدي : « لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تَبَدَّلَتْ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ » . « وَلَا تَقِفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا » .

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُنَجِّيكَ مِمَّا أَصَابَنَا ، وَإِنْ أَرَدْتَ السَّلَامَةَ مِنْهُ فَلَا تَفْتَحْ هذا الباب — وَأَشَارَ إِلَيْهِ يَدَهُ — وَإِنْ فَتَحْتَهُ وَوَقَعْتَ فِيهَا وَقَعْنَا فِيهِ فَلَا تُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَكَ .

ثم اشتدت وطأة المرض على الشيخ ومات ، فجهزهُ الشابُ ودفنهُ مع أصحابه ، وبقي هو في الدَّارِ وَحدهُ .

حَيَّرَ الباب الشابَّ وشغله ، وأصبح متردداً مُضطرباً ، أيفتحُ البابَ أم لا يفتحه ؟ فصار يُقدِّم رجلاً ويؤخرُ أخرى ؛ ثم غلبته الرغبة في فتحه ، فقام إليه مُفوضاً أمره إلى الله ، وكسر أقفاله ، فانفرج عن دهليز ضيق مشى فيه ثلاث ساعات حتى انتهى إلى شاطئ نهر عظيم .

فجعل ينظر ذات اليمين وذات الشمال فلا يجد أحداً ، فوقف حائرًا مفكرًا ؛ وإذا طائر كبير قد اختطفه وطار به إلى أن ألقاهُ في جزيرة وسط البحر وتركه . فجلس فيها خائفًا يترقبُ لا يهتدى إلى سبيل ، فلاح له من بُعد قلع مركب يدنو من جزيرته رويدًا رويدًا ، فكان مبعثَ أمله ، والرجاء في نجاته وسلامته .

وحبسَ نظراته عليه حتى رسا على الشاطئ قريباً منه ، فوجده زورقًا كبيراً صنع من العاج والأبنوس ، وصُفِّحَ بالذهب الوهاج ، وصنعت مجاذيفه من العود والصندل ، به عشر جوار أبكار ، يأسرن بجمالهن القلوب والأبصار ، فلما رأينه ذهبن إليه وقبلن يديه وقلن له :

أنت الملك العروس . وتقدمت إليه أجملهن ، وألبسته حُلَّةً مُلوَكَّةً ، ووضعت على رأسه تاجاً مُرصعاً بالذهب وأنواع اليواقيت ، وأخذته معها إلى الزورق ، فوجده مفروشاً ببسط حريرية منسقة الألوان ، ثم نشرن القلوع ، وخضن بزورقهن لجح البحر ، والشابُّ لا يدري ، أهو في يقظة أم في منام !!!

قال الشاب : ولما قرب الزورق من الشاطئ رأيتَه قد امتلأً بجنود
لا أكاد أحصِيها عدًّا ، فنزلن من الزورق ونزلت معهن ، وقدمن لي خمسة
جِياد عليهن سروج محلاة بالذهب والآلئ الثمينة ، فركبتُ جوادًا
وانعقدت الرايات والأعلام على رأسى ، وسار الجندُ من حولى حتى
أشرفنا على أرض ذات أشجار وزرع بها قصور شائخة ، فرأينا جنودًا
كثيرة العدد تخرج إلينا فى صفوف منظمة .

وتقدم الملك على جواده فلما دنا منى نزل عن جواده فنزلت أنا عن
جوادى وصافنى وهو فرحٌ مستبشر ، ثم قال لى :
أنت ضيفى الليلة .

وذهبتُ مع الملك إلى قصره ، فأجلسنى على كرسى من ذهب ،
فى حجرة فسيحة مفروشة بالبسط الحريرية ، تدلت من سقفها المموه
بالذهب الثريات ، وصُفت فيها مقاعد من العاج والأبنوس ، وجلس
الملك بجوارى ، ثم كشف اللثام عن وجهه فإذا هو فتاة من أجل ما خلقَ
الله وصور ، وقالت .

أنا ملكة هذه الأرض ، وهؤلاء الجنود الذى رأيتهم نساء ، أما الرجال
فإنهم يقومون بأعمال الفلاحة والصناعة وعمارة البلاد ، وأما النساء فهن
الحكامُ والجنود وأرباب المناصب .

ودخل الوزير فإذا هو عجوز شطاء ذات أدب ووقار ، فقالت
لها الملكة :

أَحْضَرِي لَنَا الْقَاضِي وَالشُّهُودَ ، ثُمَّ أَمَرَّتِ الْمَلِكَةَ إِلَى الشَّابِّ قَائِلَةً :
 أَيُرْضِيكَ أَنْ أَكُونَ لَكَ زَوْجَةً ؟ فَقَالَ :
 ذَلِكَ حَظٌّ عَظِيمٌ أَحْمَدُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ ، فَقَالَتْ :

جَمِيعَ مَالِي مِنْ جُنْدٍ وَسُلْطَةٍ وَمَالٍ سَيَكُونُ لَكَ تَتَصَرَّفُ فِيهِ كَمَا تَشَاءُ ،
 وَلَكِنْ شَيْئًا وَاحِدًا هُوَ الَّذِي أَحْذَرُكَ مِنْهُ ، هَذَا الْبَابُ الْمُغْلَقُ —
 وَأَشَارَتْ إِلَيْهِ — حَذَارُ أَنْ تَفْتَحَهُ ، وَإِنْ أَنْتَ فَتَحْتَهُ خَسِرْتَ وَنَدِمْتَ ،
 وَلَا يَنْفَعُكَ حِينَئِذٍ نَدَمُكَ وَحَسْرَتُكَ .

وَحَضَرَ الْقَاضِي وَالشُّهُودَ وَأَبْرَمَ عَقْدَ الزَّوْاجِ وَأَقَامَ مَعَ زَوْجَتِهِ سَبْعَةَ
 أَعْوَامٍ فِي أَرْغَدٍ عَيْشٍ وَأَطْيَبِهِ .

تَذَكَّرَ الشَّابُّ بَعْدَ هَذِهِ الْأَعْوَامِ الْبَابَ الَّذِي حَفَرَتْهُ زَوْجَتُهُ مِنْ فَتْحِهِ
 فَتَرَعَتْ نَفْسُهُ ، وَالنَّفْسُ أُمَّارَةٌ بِحَبِّ الْاِسْتِطْلَاعِ ، فَقَالَ لِنَفْسِهِ :

لَوْلَا أَنَّهُ يَحْوِي مِنَ النَّفَائِسِ وَالْأَلْوَانِ النَّعِيمِ أَكْثَرَ مِمَّا شَاهَدْتُ
 مَا حَذَرْتَنِي مِنْ فَتْحِهِ ، وَقَامَ إِلَيْهِ وَفَتَحَهُ فَإِذَا بِالطَّائِرِ الَّذِي خَطَفَهُ وَحَطَّهُ
 فِي الْجَزِيرَةِ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ الطَّائِرُ وَقَالَ :

مَرْحَبًا بِوَجْهِ لَا يُفْلَحُ أَبَدًا ، وَهَجَمَ عَلَيْهِ وَخَطَفَهُ وَطَارَ بِهِ ثُمَّ حَطَّهُ فِي
 الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ قَدْ اخْتَطَفَهُ مِنْهُ ، فَلَبِثَ فِي مَكَانِهِ هَذَا عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ
 يَتَرَقَّبُ الْعُودَةَ إِلَى زَوْجَتِهِ فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا مِمَّا فِي نَفْسِهِ ، وَسَمِعَ صَوْتًا يَقُولُ :
 هِيَاتِ هِيَاتِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْكَ مَا فَاتَ .



فرجع إلى دار الشيوخ وعلم أن ذلك سببُ بكائهم ، فجعل يبكي هو أيضاً حتَّى مات .

قال الوزيرُ : وهذا مثل سُقته إليك حتى تحجم عن قتل ابنك ضارباً بكلام الجارية عرض الحائط ، وإلا ندمت ندامة الشاب الذي لم يستمع لقول الناصحين .

جاءت الجارية وقالت : إن وزراءك يرمونني بالكيد والمكر ، وهأنذا أقص عليك حكاية لتعرف منها كيد الرُّجال وشدته .
فقال الملك : قصي ما تشائين .

(٣)

فقالَت الجارية .

اشترى أحد الظُرَفاء غلاماً ، ووصى به زوجته خيراً ، وذاتَ يوم قال الرجل لزوجته أمام الغلام :

اخرجي غداً إلى البستان لتروّحي عن نفسك وتستمتعي بمباهج الطبيعة .

فقالَت له : شكراً لك ، وسأخرج غداً إن شاء الله في صحبة الغلام .
أعد الغلام في تلك الليلة طعاماً وفاكهة وماء ، وذهب بذلك كله إلى البستان ، فوضع الطعام تحت شجرة ، والفاكهة تحت شجرة ، والماء تحت شجرة ، ولم يشعر أحداً بجميع ما فعله .

وفي الصباح ذهبتُ الزوجة والغلامُ ومعهما ما يحتاجان إليه في ذلك اليوم من طعامٍ وشرابٍ ، فلما دخلا البستان ونعق الغرابُ قال له الغلام : صدقتَ ، فقالت سيدةُ : وهل تعرف لغة الطير ؟ وإذا كنت تعرفها فاذا يقول الغرابُ الآن ؟

فقال الغلامُ : إني أعرف لغة الطير ، وإن الغراب يقول : تحت هذه الشجرة ، وأشار إلى شجرة بعيدة بيده ، طعام نخذه واكلوه ؛ فذهبت الزوجة إلى الشجرة التي أشار إليها الغلامُ فوجدتُ تحتها طعاماً فأكلته ، فعرفت أن غلامها يعرف لغة الطير .

ثم سارا في البستان ، ونعق الغراب فقال الغلام صدقت ، وسألتُ سيدةَ عما يقوله هذه المرة فقال : إنه يقول : تحت الشجرة الفلانية فاكهة نخذه واكلوها ، فذهبت الزوجة إليها فوجدت الفاكهة فأكلها فزاد تصديقها أن الغلام يعرف لغة الطير .

ثم سارا في البستان ، ونعق الغرابُ فقال له صدقت ، فسألته عن ذلك فقال :

يقولُ الغراب : تحت الشجرةِ الفلانية ماءٌ فاذهبوا إليه واشربوه . فذهبا إليها ووجدا الماء وشرباه ، فأيقنت الزوجة أن غلامها يعرف لغة الطير ، ثم سارا ونعق الغرابُ ، فأخذ الغلامُ حجراً ورماه به فطار .

فقالتُ سيدةُ : لم ضربته هذه المرة ، وماذا قال : فقال الغلام : لا أستطيعُ أن أحكى ما قاله .

فقلت : قل ولا تخف ، فأبى الغلام أن يقول شيئاً ، فألحت عليه وهو لا يرضى أن يقول شيئاً .

ولما تعبت من الغلام أتمست عليه أن يقول ، فقال : إنَّ الغراب يقول : اقتل سيدك وتزوج بسيدتك ، فضحكت الزوجة حتى استلقت على ظهرها .

وكان سيده قد حضر الآن وراها على قرب مستلقيّة ، فنادى غلامه وسأله : ما لسيدتك نائمةً ، فأجابته الغلام : وقعت من الشجرة ، وكانت قد أشرفت على الموت ، ولكنَّ الله نجَّأها ، وإن كانت لا تزال تشعر ببعض الألم في جسمها ، فسمعتُ الزوجة هذا الكلام فأخذت تتألم من ظهرها ومن رجلها ومن يدها ، فأمر الزوج والغلام أن يحضر الفرس لزوجته ، فأركبها وأمسك الزوج بركاب والغلام بركاب وساروا إلى المنزل والزوج يدعو لها بالشفاء العاجل .

قالت الجارية : وتلك صورة من مكر الرجال ، فلا ينبغي أن يصرفك وزراؤك عن الأخذ بحقي وإنصافي ؛ فقال لها سأقتله من أجلك . فاستأذنت وانصرفت .

وقال الوزير السادس : أتيتك بحكاية تعرف منها كيف استطاعت امرأة أن تمكر بطائفة من عظماء الدولة ، لتعلم أن الجارية مكرت بابنك وأحكمت مكرها ، وستنبئك الأيام صدق ما تقول ؛ فقال الملك : إني مصبغ إلى قولك فخذنا بما تريد . فقال الوزير :

كان لبنت من بنات التجار زوج تاجر كثير الأسفار ، وغاب عنها مدة طويلة في مرة من مرات سفره إلى بلاد بعيدة ، وكان يقوم بخدمتها غلامٌ جميل تحبه حباً جماً ، وفي يوم من الأيام تنازع الغلام ورجل من أهل المدينة فشكاه الرجل إلى الوالى وسجنه ، فلما بلغها نبأ سجنه حزنت ولبست أخف ثيابها وتزينت وذهبت إلى منزل الوالى فوجدته في حجرة الاستقبال ، فسلمت عليه وناولته ورقةً كتبت فيها : إن الغلام . . . الذى سجنه بالأمس برىء مما نُسبَ إليه ، وهو أخى ، وليس عندى من يقوم بقضاء حاجتى في تلك الأيام التى غابَ عنى فيها زوجى ، ولهذا أرجو أن تطلقه من سجنه ؛ فلما قرأها نظر إليها قائلاً :

ادخلى منزلى وانتظرى حتى أحضر الغلام لتأخذه .

فقالت : إني غريبة ، ولا أدخل منزل أحد وزوجى غائب عنى في

بلاد بعيدة .

فقال : إن لم تدخلى منزلى وتنتظرى فلن أطلق الغلام من سجنه .

فقالت : إن كان لا بد من ذلك فخير لى ولك أن تحضر إلى منزلى

وتستريح فيه النهار كله ، فليس فيه أحد غيرى ، فاستبشر وقال : وأين

منزلك؟ فقالت : فى المكان الفلانى ، واتفق معها على يوم يذهب إليها فيه ،

ثم سلمت وخرجت من عنده إلى قاضى المدينة ، فقالت له :

يا سيدى القاضى ، أنصفنى وأجرك على الله ، فقال : ومن ظلمك ؟

فقالت : لى أخ سجنه الوالى وهو برىء ، وهو الذى يقوم بخدمتى الآن ،

لأن زوجي غائب في بلاد بعيدة ، وليس معي أحد غيره ، ورجائي أن تشفع لي عند الوالي ليطلقه ، فنظر القاضي إليها وأعجبته ، فقال : ادخلي منزلي وانتظري حتى يرسل إلي الوالي يطلقه .

فقالت : هل هناك ضرورة تستدعي أن أدخل المنزل ؟ فقال : نعم ، وإن لم تدخل المنزل وتستريح في فيه فاذهبي إلى سبيلك .

فقالت : ما دمت ترى ذلك ضروريا فإني أستحسن أن تأتيني في منزلي لتنعم براحتك فيه جميع النهار ، فقال : رأي حسن ، وأين منزلك ؟ فقالت : في موضع كذا ، ثم اتفقا على اليوم المحدود لزيارته لها وهو نفس اليوم الذي سيحضر فيه الوالي إليها ، ثم سامتا وانصرفت من عنده إلى الوزير فكان شأنها معه كشأنها مع القاضي والوالي ، واتفقت معه على أن يذهب إلى منزلها في يوم القاضي والوالي ، وانطلقت من منزلها إلى قصر الملك ، فلما شكت إليه وعملت بما في نفسه ، وأنه لم يختلف عما في نفس الوزير والقاضي والوالي تقدمت بالرجاء إلى ملكها أن يشرفها بزيارته في بيتها حتى يعلى من شأنها ويرفع قدرها فإنها غريبة في حاجة إلى عطف المليك ، فقال الملك : ذلك ما نحب أن نسعى إليه ، ووعدنا أن يزور بيتها في اليوم الذي عينته وهو يوم الوالي وأصحابه ، وحيث مليكها وخرجت شاكرة ، وذهبت إلى نجار بالمدينة ، وطلبت إليه أن يصنع لها خزانة ذات أربع طبقات لكل طبقة باب مستقل لها ، فقال لها : هذه ثمنها أربعة دنانير .

ولما همت بدفعها قال النجار : وإن سمحت السيدة أن أزورها في بيتها
فلن آخذ لها ثمننا !

فقالت : ما دمت راغباً في زيارتي بمنزلي فاصنعها من خمس طبقاتٍ
بأقفاؤها ، واتفقت معه على أن تكون الزيارة في اليوم المعلوم ، وهو يوم
القاضي وأصحابه ، ففرح بذلك وأمرها أن تجلس عنده حتى ينتهي من
صنعها بعد ساعة أو تزيد .

ولما صنعها أخذها الحمال ومشى معها فوضعها في حجرة الجلوس من
بيتها ، ثم أخذت أربعة أثواب وذهبت إلى الصباغ ، فصبغها وجعل لكل
ثوب لوناً يخالف الآخر ورجعت إلى منزلها ، وأخذت في إعداد الطعام
والفواكه ، وفرشت حجرة الجلوس بالأبسطة الفاخرة .

ولما جاء اليوم المعلوم لبست أنحر ما عندها من الثياب وتطيبت بأنواع
من الطيب الذكيّ الرائحة وجلست تنتظر القادمين .

وطرق الباب ففتحته فإذا القاضي داخل عليها فاستقبلته هشةً هشةً ،
وأجلسه في حجرة الجلوس ، وقالت له : اخلع ثيابك والبس هذا الثوب ،
وتلك القلنسوة لتأخذ حظك من الراحة حتى أحضر الطعام والشراب
ففعل ما أشارت به عليه . وما لبث أن جلس حتى دُقَّ الباب ، فسألها عن
الطارق فقالت له : إنه زوجي .

فقال : وماذا تصنعين ؟

فقالت : لا تخف فلن يمكث هنا طويلاً ، فقم أنت واختبي في هذه

الخزانة حتى يخرج إلى سبيله ، فدخل الطابق الأول وأقفلت الباب وذهبت إلى باب المنزل وفتحته فوجدت الوالى ، فأخذته إلى حجرة الجلوس ونزعت عنه ثيابه وألبسته ثوباً من عندها وقلنسوة كما فعلت بالقاضى ، ثم طلبت إليه أن يكتب إلى حارس السجن بإطلاق الغلام أخيها حتى تجلس معه مطمئنة وتقضى معه الوقت فى راحة ومتعة ، فكتب إلى حارسه يقول :

إذا جاءتك رسالتى هذه فأطلق فلان ابن فلان فى الحال ، وإياك أن تراجع حاملها بكلمة واحدة أو تؤخر إطلاقه من السجن دقيقة واحدة ، ثم ختم الرسالة وناولها إياها ، فأخذتها منه شاكرة مبتسمة ، وما كاد يطعن حتى طرق الباب ، فسألها : من الطارق ؟

فقالت : زوجى ، ثم أدخلته الطابق الثانى من الخزانة وأقفلت الباب عليه ، وانصرفت لتستقبل الطارق ، فكان الوزير ، ففعلت به ما فعلته بالقاضى والوالى ، وأدخلته الطابق الثالث وأقفلت الباب عليه وانفلتت إلى باب المنزل لتستقبل الطارق ، فقَبَّلتْ يديه وأجلسته فى صدر المكان من حجرة الجلوس وقالت : شَرَّفَتِ الدار أيها الملك العظيم ، بهذا القُدوم الميمون ، وتلك خطوات كريمة أعزتنا بها وأكرمتنا ، والله سبحانه وتعالى يحزيك عنا خير الجزاء ، ثم عرضت عليه أن يلبث الثوب الذى أعدته نخلع ثيابه ولبسه ، وطرق الباب ، فقال الملك :

من هذا الطارق ؟

فقلت : زوجى ، فقال : سرّحيه بالمعروف وإلا أودعته السجن .
فقلت : إنه لا يمكن فى المنزل إلا زمنًا يسيرًا ، فإذا أختبأت فى
هذه الخزانة كان أكرم لك وأصون لكرامة زوجى .

فطأوعها واختبأ وأغلقت الباب ، ثم فتحت باب البيت واستقبلت
النجار وجاءت به إلى الخزانة وقالت : لِمَ عماتها ضيقة ؟
فقال : لا ضيق فيها وما قصّرت فى صنعها .

فقلت : أدخل هذا الطابق لترى هل يسع مثلك أو لا ؟
فدخل وأغلقت الباب عليه ثم تركتهم وانصرفت إلى حارس السجن
فناولته رسالة الوالى ليُطلق الغلام من السجن فلما قرأها أطلقه من فوره
وأخبرت الغلام بما فعلت .
فقال : وكيف نعمل الآن .

فقلت : نهرب من هذه المدينة ، ورجعت به إلى البيت ، وأخذت
أمتعتها وحلّ الوالى والقاضى والوزير والملك ، ونزحت هى والغلام إلى
مدينة أخرى .

أما الملك ومن معه فى الخزانة فقد لبشوا محبوسين يوماً وليلة ، وهم
لا يستطيعون أن يفعلوا لأنفسهم شيئاً ، إلا أنهم جعلوا يطرقون أبواب
الخزانة الخمسة من داخلها ، وأحسّ الجيران طرقاً فى الدّار . فقالوا : إن
صاحبة الدار تركتها ولكننا نسمع طرقاً داخلها ، فدخلوها من سطحها ،
وجعلوا يجوسون خلالها ، ولكن طرق المحبوسين فى الخزانة قادم إلى

مكانها في حجرة الجلوس ، فلما كانوا أمامها طلب النجار منهم أن يكسروها ليخرج منها . وقص عليهم قصته ، فمنهم من صدّق ومنهم من كذّب . وقال من كذّب منهم : إنه عفريت من الجنّ ويحسن أن تحرق الخزانة حتى يموت هذا العفريت . وخاف المحبسون أن يحرقوا الخزانة .

فقال القاضي :

لسنا عفاريت ، ولكن المرأة الملعونة مكّرت بنا وحبستنا في هذه الخزانة دون سبب نعرفه ، وما أوقعنا في يدها إلّا إشفاقنا عليها ، وتصديقنا لقولها ، فقد ادّعت المرأة الماكرة أن زوجها قاتلها الليلة في هذه الحجرة وأشارت علينا أن نختبئ في الخزانة لننقذها قبل أن يهجم بقتلها ثم نسكه ونعاقبه ، فافتحوا الأبواب أو اكسروا أقفالها ولا تخافوا .

وقال الباقون ما قاله القاضي ، فكسروا الأقفال وفتحت الأبواب وخرجوا ، وهم يظهرون للجيران الغيظ مما فعلت بهم المرأة ، وإن كان ينظر بعضهم إلى بعض نظرات خزي وخجل ، ثم ذهبوا خفية إلى منازلهم وبحشوا عن المرأة فلم يجدوا لها خبراً .

فانظر أيها الملك ، كيف مكّرت المرأة بجماعة من كبار أولى الأمر وضجّكت منهم ثم اختفت ، وينلب على ظني أن هذه الجارية ماكرة خادعة ، وإن أنت نفّذت رأيها بقتل ابنك فلا مردّ له إذا بان كذبها وكيدها .

فقال الملك : ذلك قول سليم ولن أقتله حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر

(٤)

اغتاظت الجارية من الوزراء وجاءت إلى الملك فقالت :
لقد عَزَمْتُ على أن أشعل النار في جسمي إن لم تنصفني من ابنك
وتقتله ، وحينئذٍ تأسفُ أسفَ الملك على حارسة الحمام .
فقال لها الملك :

وكيف كان ذلك يا جارية ؟

فقالت : كانت امرأة عجوز عابدةٌ تختلف إلى قصر من قصور الملوك
للتبرُّك بها ، وذات يومٍ أعطت جارية من جواري القصر عقداً قيمته ألف
دينار ، لتحفظه عندها حتى تخرج العجوز من حمام القصر ، فوضعت الجارية
تحت الوسادة وقامت تُصَلِّي ، وكان بعض العقدة ظاهراً ، فخطفه طائر من
طيور القصر ، ووضعه في كوةٍ عاليةٍ من القصر ، ولما خرجت العجوز من
الحمام طلبت من الجارية عقدها فلم تجده تحت الوسادة ، فأخذت تبحث
عنه هنا وهناك فلم تجده أثراً ، فقالت :

أخذته منك ووضعت تحت الوسادة ، ثم قمتُ إلى الصلاة ، وما جاءني
أحدٌ أتهمه ، ولا أدري أين ذهب ؟ فشكت العجوز إلى الملك ، فأمر
زوجته أن تعذب الجارية أشد العذاب حتى تعترف ، ولكن الجارية

لم تغير قولها ولم تنتهم أحداً ، فأمر بسجنها وتعذيبها في سجنها .

و ذات يوم رأى الطائر ينقر في حبات العقد في الكوة التي وضعه فيها ، فأمر جارية أن تسرع إلى الكوة وتحضر العقد ، فلما أحضرته أدرك أن الطائر هو الذي خطفه والجارية مشغولة بصلاتها ، وأمر بالإفراج عنها وندم على ما فعله بها من سجن وتعذيب ، وأمر لها بمال لإرضائها فأبت أن تأخذ منه شيئاً ، وخرجت وهي تقسم ألا تدخل بيت أحد ، ثم أوت إلى كهف في جبل وعكفت على عبادة الله حتى ماتت .

وحكى أن حمامتين ذكراً وأنثى جماعهما وشعيراً في عشهما أيام

الشتاء .

ولما جاء الصيف جف الحب فضمروا ونقص حجمه ، فبان لزوج الحمامة أن الحب قد ضاع منه شيء ، وظن أن زوجته هي التي سرقت أو أكلته ، فأقسمت لزوجها أنها ما سرقت وما أكلت منه شيئاً ، فلم يصدقها ، وجعل يضربها ويعذبها حتى ماتت .

ولما عادت أيام الشتاء ندى الحب فكبر حجمه ورجع إلى ما كان عليه في أيام الشتاء الأولى ، فأدرك الزوج أنه قتل زوجته ظمأً ، وندم حيث لا ينفع الندم وجعل يبكي عليها حتى ضعف ومات .

وأكثر عجباً من هذا أن ملكاً كانت له بنت تسمى الدتاء فاقت في حسنها بنات عصرها ، وأصرت على ألا تتزوج إلا ممن يبارزها ويغلبها ، فإن غلبته أخذت فرسه وسلاحه وثيابه وكتبت على جبهته : هذا عتيق

الدعاء ، بارزها كثيرٌ من أبناء الملوك وهى تغلبهم وتسلبهم وتكتب على جباههم .

بلغ صيتها وشهرتها بالجمال والفروسيه ابنُ ملك من ملوك العجم فرغب فى خطبتها لنفسه ، وأمدّه أبوه بالأموال والنفائس وسافر إليها . ونزل ضيفاً على أبيها وقدم له هديةً سنيةً . فأقام فى كرم سابغ وحفاوة عظيمة .

ثم أرسل إلى الملك مع وزرائه أنه جاء من بلاده خاطباً ابنته على أن يبارزها ويكون شأنه شأن من بارزها من أبناء الملوك الذين خطبوها ، فرضى الملك وابنته ، وحدد اليوم المشهود للمبارزة .

اجتمع القومُ فى ساحة المبارزة فى الوقت المعلوم ، وجال ابن الملك وخطيبته فى المدان جولاتٍ عنيفةً أدهشتُ القوم ونالت إعجابهم .

ولما أحستُ ابنة الملك ضعفها وقعودها عن التغلبِ عليه عمدتُ إلى الحيلة ، فكشفت لثامها عن وجهٍ أضاء جماله ، فشغله النظر إليه والإعجاب عن أن يأخذ منها حذره ، واتتهزت ابنةُ الملك منه هذه الفرصة وهجمت عليه ، ورفعته بيدها عن سرجه ، وكان بذلك أسيراً مغلوباً ، فأخذتُ جوادهُ وسلاحه وثيابهُ وكتبت على جبهته : هذا أسيرُ الدعاء .

ثم أخلت سبيله ، فودعَ قصر أبيها معلناً أنه راجعٌ إلى بلاده ما دام قد أخفق فى مبارزته ، ولكنه سكن فى بيتٍ من بيوت المدينة متنكراً ، متتحلاً شخصيةً يستأنى بحيد العمل فى البساتين والرياض ، وذهب فى اليوم

التالى إلى رئيس العمال فى حديقة الملك التى تأتى إليها ابنة الملكة للاستمتاع بنسيمها وأزهارها وخضرتها .

وكان متذكراً فى شخصية شيخ عجوز ، فقال له : إني شيخ كبير قطعت حياتي فى أعمال الفلاحة وتعهد الأشجار وتنسيق البساتين ، وإني غريب محتاج ، ولى رغبة أن أعمل فى هذه الحديقة بالأجر الذى تقترحه ، فأشفق رئيس البستان عليه وقبله ، وأمره أن يحضر متاع بيته إلى الحجرة التى يقيم فيها من حجرات البستان مع بقية العمال ، وقد فرح به الرئيس لأنه وجدته مطيعاً مجداً على الرغم من شيخوخته .

وذات يوم أعلن الخدم أن ابنة الملك قادمة لتستريح فى البستان ، فمضى إلى حجراته ، وأحضر بعضاً من الحلى ، وجلس بها تحت شجرة ووضعها أمامه ، وأحكم تنكر فى شخصية العجوز ، فبدت عليه رعشة الكبر وضعف الهرم ، فرت به ابنة الملك وجواريتها فأعجبها ما أمامه من الحلى ، فذهبت إليه وقالت له : لمن هذا الحلى ؟ وماذا تصنع به ؟

فقال : هذا الحلى لى وأريد أن أتزوج به واحدة منكن فضحكت ابنة الملك ، وقالت : قد زوجتك به هذه الجارية ، فدفعه إليها ، وأخذته الجارية فرحةً به ، وأخذت يتضاكن من هذه الحالة ، ثم رجعت إلى بيوتهن .

وفى اليوم التالى حضرت ابنة الملك وجواريتها ، وزوجته جارية أخرى وأخذن الحلى الذى معه ، على نحو ما فعلن به فى اليوم الأول . فأعجب

الحلى ابنة الملك وقالت فى نفسها : كنت أنا أحق بهذا الحلى الذى لا أجد مثله فى خزائن أبى .

ثم بكرت إلى البستان وحدها ، والتقت بذلك الشيخ وقالت له : هل تحب أن تتزوجنى ؟

فقال : أحب ذلك كثيراً ولك عندى من الحلى أجمل وأغلى ، وأعطاها ما معه .

ثم قال : هل تعرفينى ؟

فقالت : لا .

فقال : أنا بهرام بن الملك الأعجمى ، تحملت متاعب السفر وذلَّ الغربة والتكر فى هذه الصورة من أجلك .

فقالت : ولن أجمعك فى أملك ، وأضيع عليك تعب غربتك ، ولكن لا سبيل إلى الزواج منك إلا بالهرب معك والفرار إلى بلادك .

فقال : ذلك علينا يسير .

فقالت : أعد نفسك للرحيل فى غلس الظلام هذه الليلة .

فقال لها : سمعاً وطاعة وشكراً وحيداً .

وبعد أن هدأ الليل وسكن جاءته بجوادين وما خف حمله من المال ، وانسلَّ من المدينة ، وأخذ يطويان القفار جادين دائبين حتى وصلا إلى مدينة بهرام وهناك تلقاهما أبوه لقاءً جميلاً ، وأقام لزوجهما الأفرح ، وأرسل إلى والدهما من يخبره أمرهما ، ودعاهُ إلى زيارته توثيقاً لرابطة

النسبِ والمصاهرة ، فانظرُ أيها الملكِ كيف مكر ابن الملك حتى خدع ابنة الملكِ وأخذها وهرب . فهل بعد ذلك تسمع قول الوزراء في جاريته ؟ فقال لها : سأقتل ابني .

وفي اليوم السابع جاء الوزيرُ السابع فقال : لا تزال الحوادث ناطقةً بأن للنساء كيداً تعجزُ عنه الرجال ، ولا أزال أعتقدُ أنَّ جاريته افترت على ابنك الكذب وكادتُ له كيداً أليماً ، فقد بلغني أن رجلاً أعطى زوجته درهما تشتري به أرزاً ، فذهبت إلى التاجر وابتاعت منه الأرز .

ثم قال لها :

إنَّ الأرز لا يطيب أكله إلا بالسكر ، فإن أردت سكرًا فادخلي الدكان وخذيهِ .

فلما دخلت أمر خادمه أن يزن لها بدرهم سكرًا ، وغمز بعينه ، ففهم الخادم مراده .

أخذ الخادمُ منها المنديل الذي فيه الأرز وأفرغه ، ووضع فيه ترابًا وحجرًا وربطه وناولها إياه فأخذته وانصرفت وهي تعتقدُ أنَّ في المنديل أرزًا وسكرًا .

ولما دخلت منزلها وضعتُ المنديل أمام زوجها وذهبتُ فأحضرت قدرًا ، ووجد زوجها أن المنديل به ترابٌ وحجرٌ .

فقال لها : ما نؤينا أن نبني بيتًا حتى أحضرتِ لنا في المنديل ترابًا



وحجراً ، فنظرت إلى المنديل وعرفت أن الخادم غشها وبدّل بالأرز
والسكر تراباً وحجراً .

فقالت : انشغل بالي وذهبت لأحضر الغربال فأحضرتُ القدر .

فقال زوجها : وما الذى شغل بالك ؟

فقالت : إن الدرهم سقط منى فى السوقِ فاستحييت أن أبحث عليه ،
وصعب علىّ أن أتركه ، فجمعت التراب من الموضع الذى سقط فيه ،
وأتيتُ به فى المنديل ، وذهبتُ لأحضر الغربال لأغربله ، فنسيت
وأحضرتُ القدر ، ثم رجعت وأحضرت الغربال وأعطته زوجها وقالت :
غربله أنت فإن بصرك أقوى من بصرى ، فجعل زوجها يغربلُ التراب
ويتعب وهو معتقدٌ صدق زوجته فلم يجد شيئاً . فهل فى استطاعة رجل أن
يخلص من هذا المأزق بسرعةٍ وبذلك الحيلة العظيمة ، فاحذر الجارية
وما تدعوك إليه .

فقال له : لن أطاوعها ولن أقتل ابنى .

وفى اليوم الثامن دخل على الملك ابنه ، ومعه مؤدّبه السندباد ، وكان
بمجلسه وقتئذٍ الوزراء والعلماء ، والأمراء وكبراء الأعيان والوجهاء ،
فخيا والده وقبل يديه ، وحيا الجالسين وحيوه . وفرح الملكُ بابنه فرحاً
عظيماً وقال لمؤدبه السندباد : كنت السبب فى حجز ابنى سبعة أيامٍ
أحاط به الخطرُ فيها من كلِّ جانب ، ثم التفت إلى الجالسين وقال : لو كنت
قتلت ابنى فمن يحملُ ذنب قتله أيحمله أبوه أم تحمله الجارية أم يحمله

مؤدبه ؟ فسكت الحاضرون ولم يستطيعوا أن يجيبوا ، فقال السندباد لابن الملك : أجب أنت يا بنى ، فقال :

قدم على رجلٍ ضيوفٌ ، فأمر جاريته أن تشتري لهم من السوق لبنًا في جرة ، وبينما هي راجعةٌ باللبن من السوق مرت من فوقها حداةٌ ممسكة حية بمخالبها فألقت الحية شيئًا من سمها في الجرة ، دون علم من الجارية ، وشرب سيدها وضيوفه هذا اللبن فأتوا لساعتهم ، فعلى من ذنبهم ؟

فاختلف الجالسون في الحكم ، فمن قائل بأن الذنب على من شربوا ، ومن قائل بأن الذنب على الجارية ، ومن قائل بأن الذنب على الحية .

فقال السندباد لابن الملك ؛ وما رأيك أنت يا بنى ؟

فقال : لا ذنب على أحد ، ولكن آجالهم انتهت ، وقدر الله أن تكون موتهم على هذه الحالة .

فمعجب القوم من ذكاء ابن الملك وجعلوا يدعون له ويثنون عليه ويقولون ما أحدٌ ذكأك !! وأكثر علمك !! وما أصدقك في حكمك !!

فقال ابن الملك : لست أعلم من الأعمى ، وابن الثلاث السنين ، وابن الخمس السنين ، فطلبوا إليه أن يحدثهم عن هؤلاء الثلاثة ، فقال :

كان تاجرٌ رحالةٌ يسافر ببضاعته إلى كثير من البلدان التي ترُوج فيها بضاعته ، فأراد أن يسافر إلى بلدةٍ من البلاد ، وسأل القادمين منها عن أكثر البضائع رواجًا فيها .

فقالوا : حطب الصندل ، فإنه غالى الثمن ولا يستغنى عنه أحدٌ ولن تبور تجارتَه في تلك البلدة .

اشترى التاجر بجميع ما معه من المال حطب الصندل وسافر إلى تلك البلدة ، وكان وصوله إليها في غروب الشمس فلقيته عجوزٌ تسرق غنما ، وسألته : من تكون أيها الرجل ؟

فقال : تاجرٌ غريبٌ ، أتيت إلى هذه البلدة أبتغي فيها رزقي ، فقالت : رزقك الله ، ويسر لك الأمور ، وأنصحُ لك أن تحذر أهل هذا البلد ، فهم قومٌ يمكرون بالغريب ليستولوا على ما معه .

نزل التاجرُ في خان بالمدينة ، وسأله رجل فيه من أهلها : من أنت ؟

فأجاب : تاجرٌ قدمتُ من بلدة . . . إلى هذه المدينة ببضاعتي .

— وما أحضرت معك من التجارة ؟

— أحضرتُ خشب الصندل ، فقد سمعت أنه تجارة رابحة في مدينتكم . فقال الرجلُ :

كذب عليك من أنباءك هذا ، فقيمتُه من قيمة الحطب الذي تتخذه وقوداً ، فأسف التاجر وقال في نفسه ضيعت مالى في حطب لا يباع ولا يشتري .

ثم سأله الرجل الذي هو من أهل المدينة عما أحزنه وغير شكله وسماحة وجهه .

فقال : وضعت جميع مالى فى خشب الصندل راجياً ربِّحاً وفيراً ، فما
كسبت ربِّحاً ، وما أبقيت مالا ؛ فقال الرجل : حينئذٍ وجب على أن
أخفف عنك حملك فهل ترضى أن تبيعنى مامعك من خشب الصندل صاعاً
بصاع مما تقترحه من أنواع الثمن ؟

فقال التاجر : رضيتُ وقدرَ فى نفسه أن يأخذ ملء الصاع ذهباً ،
وأخذ الرجلُ الصندل جميعه إلى منزله ، لينقده هناك الثمن الذى يختار نوعه .

وفى الصباح مشى التاجرُ فى المدينة يتعرفُ ما فيها ، فلقى رجل
أعور ، فأمسكه وقال له أنت الذى أتلقت عيني ، وحاول التاجر أن يفلت
من يده فلم يستطع ، واجتمع الناسُ وقالوا للأعور : أمهله إلى غد ليحضر لك
ثمن عينك التى أتلقتها .

وقال رجل منهم ، وأنا أضمن لك عودته وإعطاءك ثمن عينك ،
نخلِّ الأعورُ سبيله ، ومشى التاجر وكان قد انقطع حذاؤه وهو بين
الجماعة وأمَام الأعور ، فوجد إسكافيا وقال له : أصلح لى هذا الحذاء
ولك عندي من الأجر ما يرضيك ، وتركه التاجرُ وانصرف ، فعثر بجماعةٍ
جالسين يلعبون فجلس معهم ينفسُ عنه ما حل به من الغمِّ ، فجعلوا
يرغبونه أن يلعب معهم فأطاعهم .

ولما غلبوه قالوا له : إما أن تشرب البحر وإما أخذنا جميع ما تملك
من المال .

فقال لهم : أمهلونى إلى الغد ، فأمهلوه وتركهم إلى مكانٍ منعزل فجلس

فيه حزيناً ، ومرت به العجوزُ التي نصحت له وحذرتُه أولُ قُدومه .
 فقالت : أراك حزيناً متألماً ، فماذا أصابك من أهل هذه المدينة الظالمين ؟
 فحكى لها جميع ما جرى له . فقالت :

سأدلك على من يخلصك ويدفع عنك شر هؤلاء الذين أضروك
 واحتالوا في نهب أموالك فاسمع مني ما أقول : في مكان . . . بابه واسعٌ
 مرتفع ، وهو مفتوح على الدوام ليلاً ونهاراً ، فإذا دخلته وجدت فناءً واسعاً
 على جانبه الأيمن إيوان مفروش بالحصير الملون ، وجلس فيه شيخ أعمى
 مقعد ، وهو عالم ذكيٌّ ، ماكر ساحر ، بصير بتصرف الأمور ، وبيان
 الصالح منها والفساد ، والرايح والخاسر ، حلال للمشكلات المعقدة ، فتّاح
 للأبواب المغلقة ، تأتيه الأشرار فيعرضون عليه حوادثهم ، وهو يبين لهم
 فيها وجوه الفوز والخيبة ، والربح والخسارة ، فاذهب ليلتك هذه إلى هذا
 البيت مستخفياً ، واختبئ في مكان قريب من مجلس ذلك الشيخ الأعمى ،
 بحيثُ تراه وتسمع أقوالهم ، وهم لا يرونك ولا يحسون لك حركة ولا
 يسمعون همساً ، وستعرف منه سبل انتصارك عليهم ونجاتك من أيديهم .
 ذهب التاجرُ الغريب إلى هذا البيت واختبأ فيه حتى اجتمع الأشرارُ
 وقعدوا أمام هذا الشيخ الأعمى ، وكان من بينهم خصومه الأربعة ، فتقدم
 إليه صاحب خشب الصندل ، وقال : إني ابتعت خشب صندلٍ من تاجرٍ
 غريب صاعاً بصاع مملوءٌ ممّا يختاره ذلك التاجرُ .
 فقال الأعمى : قد غلبك التاجرُ .

فقال الرجلُ : ولم غلبني ؟

فقال : إذا طلب منك ملء الصاع ذهباً فهل تعطيه ؟

فقال الرجلُ : نعم أعطيه وأكون الرابع .

فقال الأعمى : فإن طلب منك ملء الصاع براغيث نصفها ذكور والنصف الآخر إناث فماذا أنت فاعل ؟ فسكت الرجل وعلم أنه مغلوب :
وتقدم الأعور وقال : لقيني اليوم رجل غريب فادعيتُ عليه أنه أتلف عيني ، وما أخليتُ سبيله حتى ضمنه أحد الناس ، على أن يأتيني غداً ويعطيني ثمن عيني التالفة ، فقال الأعمى : غرمت وغلبتك ، فقال الأعور : وكيف ذلك ؟
فقال : له أن يقول لك : العين بالعين والسن بالسن والأذن بالأذن ، فاقلع عينك السليمة ، وأنا أقطع عيناً من عيوني ، ونزنُ كلا منهما ، فإن تساوت عيني وعينك فهي فيها ، وإلا أعطيتني دية عيني ، وتكون بذلك قد غرمت الدية ، وفقدت عينك الثانية ، وبقي هو بعين واحدة يبصر بها ، فسكت الأعورُ وعلم أنه لم يفز بشيء .

وتقدم الإسكافيُّ إليه فقال :

أصلحتُ اليوم حذاء رجلٍ على أن يعطيني ما أرتضيه ، فقال الأعمى لو أراد أن يأخذ حذاءه دون أن يعطيك شيئاً تفعل .

فقال الإسكافيُّ : وكيف ذلك ؟

فقال الأعمى : سيقول لك : إن السلطان هُزِمَت أعداؤه ، وكثرت أولاده ، وقويت أنصاره وجنوده ، أَرْضِيتَ أم لا ؟ فإن قلت : رضيت ،

أخذ نعله وانصرف . وإن قلت : لا ، أخذ نعله وضربك به وانصرف ولم تستطع أن تفعل شيئاً . فسكت أيضاً وعلم أنه مغلوب .

وتقدم جماعة اللاعبين وقالوا : مرّ بنا رجل غريب فاستملناه إلى اللعب معنا ومراهنّا فغلبناه وقلنا له : لا نُعفيك من الغرم ودفع ما عليك حتى تشرب هذا البحر ، فإن شربته أعطيناك وأعطيناك ما معنا من النقود .

فقال الأعمى : غلبكم وفاز بنقودكم ، فقالوا : وكيف ذلك ؟ فقال : سيقول لكم : أمسكوا فم هذا البحر وناولوني إياه وأنا أشربه فلن تستطيعوا ذلك وحينئذ يأخذ أموالكم .

فعلّموا أنهم قد غلبوا وخسروا أموالهم ، ثم انصرفوا وانصرف التاجر .

وقد فهم من الأعمى وجوه خلاصه وفوزه . ومكث في خانه حتى يجيئه خصومه .

وفي الصباح أتاه من راهنه على شرب البحر فقال التاجر له : أمسك فهُ وناولني إياه وأنا أشربه ، وإلا غرمت لي مائة دينار وأعفيتك من هذه المراهنة ، فأعطاه مائة دينار وانصرف غارماً .

وأتاه الإسكافيُ بحذائه بعد أن أصلحه . فقال له التاجر : لقد غلب السلطان أعداءه ، وكثر أولاده وقوى جنده وأنصاره ، أرضيت أم لا ؟ فقال الإسكافي : رضيت وأمرى إلى الله ، وناوله حذاءه وانصرف ولم يأخذ منه شيئاً .

وجاءه الأعور فقال له التاجر : اقلع عينك السليمة وأقلع عيني ؛ فإن تساوتا في الوزن ، كانت العين بالعين ، وإلاَّ غرمت دية عيني التي كنت السبب في قلعها بادِّعائك الكاذب ، فقال الأعور : أَقِلْنِي من هذه القضية ، فقال التاجر : أَقِلْتُكَ منها على أن تعطيني مائة دينارٍ وإلاَّ رفعتها إلى السلطان ايجزيك بما ادَّعَيْتَ باطلا ، فأعطاه مائة دينار وانصرف نادماً .

وحضر إليه الرجل الذي اشترى منه خشب الصندل ليُعْطِيه ثمنه ، فقال التاجر : ماذا أحضرته ثمنًا لخشبى ؟ فقال : إن أردت أن أملك لك صاعاً ذهباً بصاع من خشبك فعلت ، فقال التاجر لا يُرضيني إلا أن أملك الصاع براغيث نصفها ذكور والنصف الآخر إناث ، فقال الرجل : لا أستطيع ذلك نخذ خشبك ، فقال التاجر : آخذُ خشبى ومعه عوضٌ قدره مائة دينار ، فرد الرجل الخشب ومعه مائة دينار . ثم باع التاجر الخشب في المدينة ، وربح فيه ربحاً عظيماً ، وسافر إلى بلده . قال ابن الملك : وهذا حديث الأعمى ، أما الحديث عن ابن الثلاث السنين فاستمعوا له :

كان رجل فاسق مغرماً بالنساء ، فسمع أن في مدينة بعيدة عن مدينته امرأة جميلة ، فسافر إليها ، وأخذ معه هدية قيَّمة ليستميلها بها ، فلما وصل إلى مدينتها جعل يسأل عن منزلها حتى عرفه ، فذهب إليه وطرق بابه ، فقالت المرأة : من الطارق ؟ وذهبت إلى الباب ففتحتهُ ، فقال لها : رجل غريب يرجو أن تقبله ضيفاً ، ولك منى هذه الهدية ، وناولها عقداً له قيمته ، فقالت المرأة : مرحباً بالضيف الكريم ، وأخذت منه العقد ،

وأدخلته المنزل ، وأجلسته في حجرة بها ابن صغير لها ، لم يبلغ من العمر إلا ثلاث سنين ، ثم استأذنت وقامت لتُهيّ طعاماً للضيف ، فجعل الولد يبكي ويبكي حتى قلق الرجل وضاق صدره ، فنادى أمه وقال لها : إن ابنك هذا سُومٌ على نفسه وأهله ، فأجاب الولد من فوره : وما أنت إلا سُوم ونكبة ، فقد سافرت من مدينتك أسيراً لشهوتك ودناءة نفسك ، طامعاً في انتهاك الحرمات وظلم الأعراس وعقوق الفضيلة ، فأتعبت نفسك وخسرت مالك ، أما أنا فقد بكيت لأنني أحسست شيئاً في عيني فأخرجته بدموعي ، فأثنا سُوم على نفسه وأهله وإنسانيته !!!

فجبل الرجل وتسلل من البيت راجعاً إلى مدينته ، وكان ذلك سبباً في صلاحه واستقامته . وهاكم الحديث عن ابن الخمس السنين :

اشترك أربعة من التجار ، وجمعوا رأس مال قدره ألف دينار وضعوها في كيس ، وخرجوا ليشتروا بها بضاعة ، فرّوا في طريقهم ببستان أعجبهم ، واستمالهم جماله إلى أن يدخلوه ليستمتعوا بحاسنه ومباهجه ، فأودعوا كيس الدنانير عند حارسته ، وشرطوا عليها ألا تعطيهم الكيس إلا في حضرتهم أجمعين .

وأخذوا يحوسون خلال البستان ، بين أشجاره وزُرُوعه ، وأزهاره ورياحينه ، في متعة من نسيمه العليل ، وظلاله الوارفة ، وطبوره المغردة ، ومياهه الجارية الصافية ، فقال أحدهم : لو غسلنا رؤوسنا من هذا الماء الصافي وتطينا !! فقالوا : وأين الطيب ؟ فقال : ها هو ذا معي ، فقال

آخر : وأين المشطُ الذي تُمشطُ بهِ شَعْرَتَا ، فقال أحدهم : لعلَّ الجارية عندها مشط نستعيـره منها ، وقال صاحب الطيب : وأنا الذي أحضر لكم المشط من عندها ، فقالوا : لا بأس ، فاذْهَبْ وَلْتَلَطَّفْ في طلبه .

ذهب التاجر إليها وقال لها : أعطيني كيس الدنانير ، فقالت : لن تأخذه مني حتى تحضروا جميعاً ، فقال لهم — وكانوا على مقربةٍ منهما — ليست براضية أن تعطيني شيئاً حتى توافقوا ، فقالوا لها : نحن الذين أرسلناه ، فأعطيه إياه ، ثم ذهبت به إلى المكان الذي حفظت الكيس فيه ، فناولته إياه ، فأخذه وخرج من البستانِ وهرب .

ولما أبطأ عليهم ذهبوا إلى الحارسة فقالوا : أين صاحبنا الذي أعطينه المشط ؟ فقالت ما طلب مني مشطاً ، ولكنَّه طلب كيس الدنانير مني ، فأيتُ أن أعطيه إياه حتى تحضروا جميعاً أو توافقوا ، وقد وافقتم على إعطائه الكيس فأخذه وخرج من البستان مولياً . فأخذوها ورفعوا أمرهم إلى القاضي ، فحكم عليها لهم وألزمها بإعطائهم كيس الدنانير ، وضمنها جماعة من أهلها كانوا حاضرين .

ومشت الحارسة إلى دارها حزينة تدعو على الظالمين وتسأل الله أن يكشفَ عنها هذا البلاء ، فلقبها غلام عمره خمسُ سنين وسألها : ما بالكَ يا أماءُ حزينة متألِّمة ؟ ! فاستصغرتَه ولم تعبأ بقوله . فكرر سؤاله مرةً ومرةً حتَّى أفضت إليه بذات نفسها ، فقال الغلام : هاتِي درهماً أشتري

به حلاوة وأنا أشير عليك بما ينبغيك ؛ ولما ناولته الدرهم فرح وقال :
ارجعى إلى القاضى وقولى له :

إن التجار قد شرطوا على ألا أعطيهم كيس الدنانير إلا فى حضرتهم
أجمعين ، فليحضروا رابعهم ويأخذوا كيس دنانيرهم ، فسألهم القاضى —
وكانوا لا يزالون فى الجلسة : أكان بينكم وبينها هذا الشرط ؟ فقالوا : نعم .
فقال : أحضروا رفيتكم وخذوا معاً كيسكم ، ثم أخلى القاضى سبيلها .

فأعجب الحاضرون بابن الملك وفرح به أبوه ، ثم سأله عن قضية
الجارية ، فقال : لعنها الله من جارية كاذبة خاطئة ، وأقسم لأبيه أنها هى
التي راودتني عن نفسى وادى زجرتها وأنذرتها أن أخبرك لتقتلها ، وقال
أحد الوزراء : لعنها الله ، وقد أرادت أن تقتلك بالباطل قبل أن تقتلها بالحق
فرمتك بالخطيئة عدواناً وكيداً ، فقال أبوه : قد حكمتك فيها ، فقال :
ابنه : يكفى أن تقذفها من قصرك وتنفيها من المدينة ، فأمر الملك بنفيها ،
وعاش هو وابنه حتى انتهت أيامهما من الحياة الدنيا .



أبو الحسن وجاريته تودُّد

كان في مدينة بغداد تاجرٌ كثيرُ المال عظيم الجاه ، كبرت سنُّه ولا يزالُ عقيماً لم يرزق بولد ، فأكثرَ من التصدق ومساعدة الفقراء بماله ، ودعا ربه أن يهب له ولداً ، يخلفه في ماله ، والقيام على استثماره ، والإنفاق منه في وجوه الخير ، من كل ما ينفعُ الناس ، ويخففُ عنهم أثقال الحياة ، فاستجابَ الله دعاءه ورزقه على الكبر من زوجته ولداً أسماهُ أبا الحسن ، وأحسن تربيته وتعليمه ، حتى بلغ رشده ، وكان قرّة عين أبيه وأُمّه .

و ذات يوم اجلس الرجلُ التاجر ابنه أبا الحسنَ بين يديه وقال له :
لقد كبرتُ سنِّي ، ودنا أجلي ، وقد أورثتك مالاً كثيراً ،
وأحسن تربيته ، فاتق الله فما خلفتهُ لك من المال ، والتزم في القيام

عليه ما شرعه الله ولا تغرّك كثرتة ، فتقعد عن استثماره ، فإن المال وإن كثّر يذهبُ بالإتفاق ، ولا تتبّع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، وتبوء بالخسران المبين في دنياك وآخرتك .

تقبّل أبو الحسن وصية والده بالسمع والطاعة ، ولم يمض إلا أشهر معدودات حتى مرض التاجر أبو الحسن ومات ، فشيّع ابنه إلى قبره في حفل جامع ، وأقام له مأتماً يليق بمنزلته ، وتوافد عليه المعزون من كل حذب يسألونه ويخففون عنه وطأة الكارثة .

ومضت الشهور فأنسته والده وألهاه المال عن وصيته ، وأحاط به قرناء السوء ، فزينوا له إشباع النفس بلذاتها وشهواتها ، فجعل ينفق ويسرف حتى لم يبق له مما تركه أبوه إلاّ جارية أسمها تودّد ، وكانت ذات جمال فاتن ، وعلم واسع ، وعقل حكيم رشيد ، ولسان فصيح . رأت الجارية تودّد فقر سيدها وإعساره ، وعزّ عليها أن تراه في هذا الضيق المؤلم ، فقالت له :

سأشيرُ عليك ياسيدي بما يسعدك ويُغنيك : بعني إلى الخليفة هارون الرشيد ، ولا تُفرّط فيّ حتى يعطيك ثمنًا لي عشرة آلاف دينار ، فإن عظم هذا الثمن في رأيه فقل له :

جاريقي هذه لا نظير لها في العلم والأدب ، وإذا اختبرتها عظمت في نفسك ، وكان هذا الثمن قليلًا فيها . وإياك أن تبغني بأقل من عشرة آلاف دينار .

أخذ أبو الحسن جاريته وذهب بها إلى الخليفة هارون الرشيد ، فاستأذن
وحياً ، ثم قال :

هذه جاريتي ، ورثتها عن أبي ، ورأيت أنها لا تصلح إلا لقصر
الخليفة ، وقد جعلتُ ثمنها اثني عشر ألف دينار ، لما امتازت به من علم
وحكمة ، وإذا اختبرها أمير المؤمنين وجدتها فوق هذا الثمن بكثير .
فالتفت إليها الخليفة قائلاً :

ما اسمك أيتها الجارية ؟

اسمي تودد .

ماذا عرفت من العلوم ؟

عرفتُ يا أمير المؤمنين علوم الشريعة واللغة والنحو ، والرياضة
والفلسفة والمنطق والحكمة والفلك ، وحذقت فن الموسيقى وأجدتُ
الضرب على العود ، وعرفت من كل شيء ما لم يعرفه إلا الراسخون
في العلم ، ولو أجلسني في حضرة العلماء وسألوني عما يريدون لرأيت مني
ما يرضيك ويسرك ، ويجعلني موضع تقديرك ، فقال الخليفة لسيدها :
أنت وجاريته ضيفان عندي ، وسأحضر العلماء ليسألوها فيما ادّعتاه
لنفسهما ، فإن أجابت وفازت أعطيتك الثمن الذي اقترحتة أو أكثر منه ،
وإلا فأنت أولى بها ، وليس لنا فيها حاجة ؛ وأمر رجاله أن يذهبوا
بهما إلى دار ضيافته .

كتب الخليفة إلى عامله بالبصرة أن يرسل إليه إبراهيم بن سيار

النَّظَامُ المعروف بِقُوَّةِ الْحُجَّةِ ، وَالتَّفَوُّقِ فِي الشَّعْرِ وَالبَلَاغَةِ وَالْمَنْطِقِ ،
وَمَعَهُ جَهْرَةٌ مِنْ كِبَارِ الْقُرَاءِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْأَطْبَاءِ وَالْمُنَجِّينَ ، وَالْحُكَمَاءِ
وَالْفَلَّاسِفَةِ وَالْمُهَنْدِسِينَ .

حَضَرَ إِبْرَاهِيمَ بْنَ سَيَّارٍ وَجَاعَةُ الْعُلَمَاءِ مُلَبِّينَ دَعْوَةَ الْخَلِيفَةِ ، وَجَلَسُوا
بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَأَمَرَ أَنْ تُخَضَّرَ الْجَارِيَةُ تَوَدُّدٌ ، فَلَمَّا حَضَرَتْ أَجْلَسَهَا عَلَى كُرْسَى
مُحَلًى بِالذَّهَبِ أَعَدَّ لَهَا ثُمَّ قَالَ لِلْعُلَمَاءِ :

هَذِهِ جَارِيَةٌ تَدَّعَى أَنَّهَا بَلَّغَتْ فِي الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ مَا لَمْ يَبْلُغْهُ إِلَّا
الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ، وَقَدْ دَعَوْتُكُمْ لِاخْتِبَارِهَا ، وَهِيَ ذِي بَيْنٍ أَيْدِيكُمْ
وَلَيْسَ أَلْهَا كُلُّكُمْ فِيهَا حَذَقٌ مِنَ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ ، حَتَّى نَعْرِفَ لَهَا
قُدْرَتَهَا ، فَقَالُوا : سَمِعًا وَطَاعَةً لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ سَادَ الْجُلُوسَةُ صَمْتُ
وَسَكُونٍ ، فَقَالَتِ الْجَارِيَةُ :

مَنْ فِيكُمْ الْعَالِمُ الْفَقِيهُ الْمَحْدَّثُ ؟ فَقَالَ أَحَدُهُمْ :

أَنَا مَنْ تَسْأَلِينَ عَنْهُ . فَقَالَتْ :

سَلْ مَا شِئْتُ . فَعَمِلَ يَسْأَلُهَا وَتُجِيبُ :

مَنْ رَبُّكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ ؟

رَبِّيَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ ، الْفَرْدُ الصَّمَدُ الَّذِي يَدُورُ مَلَكُوتُهُ كُلُّ

شَيْءٍ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ،
أَرْسَلَهُ اللَّهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

أَخْبَرَنِي عَنْ إِمَامِيكَ وَقَبْلَتِكَ وَإِخْوَانِكَ ، وَطَرِيقَتِكَ وَمَنْهَاجِكَ .



القرآنُ الكريمُ إمامي ، والكعبةُ قبلي ، والمؤمنون إخواني ،
والخيرُ طريقي ، والسنةُ النبويةُ منهاجي .

بِمَ عَرَفْتُ اللَّهَ تَعَالَى ؟

عَرَفْتُ رَبِّي بِالْعَقْلِ .

وما العقلُ ؟

العقلُ موهوبٌ ومكسوبٌ .

أَمَّا العقلُ الموهوبُ ، فقد خلقه الله تعالى يهدي به من يشاء من
عباده ، وأما العقلُ المكسوبُ فهو الذي كسبه المرء بالتعلم والخبرة
وحسن المعرفة

وأين العقلُ ؟

قَذَفَهُ اللهُ فِي الْقَلْبِ ، وَاصَّاعَدُ شُعَاعُهُ إِلَى الدِّمَاغِ حَتَّى اسْتَقَرَّ .

وَبِمَ عَرَفْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟

عَرَفْتُهُ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الَّذِي تَحَدَّى بِهِ الْعَرَبُ ، وَبِالْبَرَاهِينِ
وَالْمُعْجَزَاتِ الَّتِي ظَهَرَتْ عَلَى يَدَيْهِ تَصْدِيقًا لَهُ .

وَمَا الْفَرَائِضُ الْوَاجِبَةُ وَالسُّنَنُ الْقَائِمَةُ ؟

الْفَرَائِضُ الْوَاجِبَةُ خَمْسٌ : شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا
رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَصَوْمُ رَمَضَانَ وَحَجُّ الْبَيْتِ لِمَنِ
اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَالسُّنَنُ الْقَائِمَةُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ،
وَهَنَّ يَبْنِينَ الْعَمَرَ وَالْأَمَلَ ، وَابْنُ آدَمَ غَافِلٌ عَنْ أَنَّهُنَّ يَهْدِمُنَّ الْأَجَلَ .

وما شعائرُ الإيمان ؟

الإيمانُ والصلاة والزكاةُ والصومُ والحجُّ والجهادُ واجتنابُ الحرام .

بِمَ تقومين إلى الصلاة ؟

أقومُ إلى الصلاة بنية العبودية والإقرار بأنَّ ربِّي اللهُ الذي خلق كلَّ شيء .

ماذا فرض عليك قبل أن تقوى إلى الصلاة ؟

الطَّهارةُ وَسترُ العورةِ والوقوفُ على مكانٍ طاهرٍ والتوجُّهُ إلى القبلة والقيام والنية .

بِمَ تخرجين من بيتك إلى الصلاة ؟

أخرج من بيتي إلى الصلاة بنية العبادة .

ما مبدأ الصلاة ؟ وما تحريمها ؟ وبِمَ تتحللين منها ؟

مبدأ الصلاة الطهور ، وتحريمها تكبيرة الإحرام ، وأتحلل منها بالسلام .

وما رأيك في الصلاة ومن تركها ؟

الصلاة عماد الدين ، وهي صلة بين العبد وربِّه ، وهي تنير القلب ، وتضيء الوجه ، وترضى الرحمن ، وتغضب الشيطان ، وتدفع البلاء ، وتقي المرء شر الأعداء ، وتسبغ الرحمة ، وتكشف سوء النعمة ، وتقرب العبد من مولاه ، وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، ومن تركها عامداً متعمداً فلا حظَّ له في الإسلام .

ما مفتاحُ الصلاة ؟

الوضوء .

وما مفتاحُ الوضوء ؟

التَّسْمِيَةُ .

وما مفتاحُ التَّسْمِيَةِ ؟

اليقين .

وما مفتاحُ اليقين ؟

التَّوَكُّلُ .

وما مفتاحُ التَّوَكُّلِ ؟

الرَّجَاءُ .

وما مفتاحُ الرجاء ؟

الطَّاعَةُ .

وما مفتاحُ الطَّاعَةِ ؟

الاعترافُ لله بالوحدانية ، والإقرار له بالربوبية .

وما فرائضُ الوضوء ؟

سِتَّةُ أَشْيَاءٍ عِنْدَ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : النِّيَّةُ ، وَغَسْلُ الْوَجْهِ ،
وَوَسْطُ الْيَدَيْنِ مَعَ الْمِرْفَقَيْنِ ، وَمَسْحُ بَعْضِ الرَّأْسِ ، وَغَسْلُ الرَّجْلَيْنِ إِلَى
الكَعْبَيْنِ ، وَسُنَنُهُ عَشْرَةٌ : التَّسْمِيَةُ ، وَغَسْلُ الْكَفَيْنِ ، وَالْمُضْمَضَةُ ،
وَالِاسْتِنْشَاقُ ، وَمَسْحُ جَمِيعِ الرَّأْسِ ، وَمَسْحُ الْأُذُنَيْنِ ظَاهِرَهُمَا وَبَاطِنَهُمَا بِمَاءٍ

جديد، وتحليل اللحية الكثة ، وتحليل أصابع اليدين والرجلين ، وتقديم
اليمنى على اليسرى ، والطهارة ثلاثاً ثلاثاً ، والمواالة ؛ فإذا فرغ المرء من
من الوضوء قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ،
اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين ، سبحانك اللهم ، وبحمدك
أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ؛ فقد ورد في الأثر أن
من قاهأ عِقب كل وضوء فتحت له أبواب الجنة الثمانية تدخل من أيها
شاء . والوضوء يطرد الشيطان ، ويحفظ من جور السلطان .

وماذا يفعل المرء إذا استيقظ من نومه ؟

يَغْسِلُ يديه ثلاثاً قبل أن يباشر بهما عملاً .

وما فروض الغُسل ؟ وما سُنَّته ؟

فُروض الغُسل : النِّية وتعميم البدن بالماء ، وسُنَّته الوضوء قبله والتدليك ،
وتحليل الشعر .

وما أسباب التيمم وما فروضه وسُنَّته ؟

أسبابُ التيمم : فقد الماء والحاجة إليه والخوف والمرض ، وفروضه
النِّية وضربة للوجه وضربة لليدين ، وسُنَّته : التسمية وتقديم اليمنى على
اليسرى .

ما شروط الصلاة وأركانها وسننها ؟

شروطها طهارة الأعضاء ، وستر العورة ، ودخول وقتها ، واستقبال
القبلة ، والوقوف على مكان طاهر ، وأركانها : النية ، وتكبير الإحرام ،

والقيام للقادر عليه ، وقراءةُ الفاتحة « وبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » آية منها على مذهب الإمام الشافعي ، والركوع والطمأنينة فيه ، والاعتدال منه والطمأنينة فيه ، والسجود مرتين والطمأنينة فيهما ، والجلوس بين السجدين والطمأنينة فيه ، والتشهد الأخير ، والجلوس له ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيه ، والتسليمة الأولى ؛ وسنن الصلاة : الأذان ، والإقامة ، ورفع اليدين عند الإحرام ، ودعاء الافتتاح ، والتعوذ ، والتأمين مع الإمام ، وقراءة آيات من القرآن بعد الفاتحة ، والتكبيرات عند الانتقال من ركن إلى آخر ، وقول المصلي عند الاعتدال من الركوع : سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمْدَهُ ، ربنا لك الحمد ، والجهر في موضع الجهر ، والإسرار في موضع الإسرار ، والتشهد الأول ، والصلاة على آل في التشهد الأخير ، والتسليمة الثانية .

فيم تجب الزكاة ؟ وما مقدارها ؟

تجب الزكاة في الذهب إذا بلغ عشرين مثقالاً ، وفيه نصف مثقال ، وما زاد فبحسابه ، وتجب في الفضة إذا بلغت مائتي درهم ، وفيها خمسة دراهم وما زاد فبحسابه . وفي الإبل وأول نصابها خمس وفيها شاة وفي عشرين شاتان وفي خمس عشرة ثلاث شياه وفي عشرين أربع شياه وفي خمس وعشرين بنت مخاض وفي ست وثلاثين بنت لبون وفي ست وأربعين حقة ، وفي إحدى وستين جذعة وفي ست وسبعين بنتا لبون وفي إحدى وتسعين حقتان وفي مائة وإحدى وعشرين ثلاث بنات لبون ثم في كل أربعين بنت لبون وفي كل خمسين حقة ، وتجب في الأغنام وأول نصابها أربعون وفيها شاة أو ثنية من المعز وفي مائة وإحدى وعشرين شاتان وفي

مائتين وواحدة ثلاث شياه وفي أربع مائة أربع شياه ثم في كل مائة شاه، وتجب في الزرع والثمار ونصابها خمسة أوسق، ولا زكاة فيما دون ذلك لما روى عن الشيخين: (ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة)، وفيها إن سقيت بماء السماء أو السيج العشر، وإن سقيت بدولاب أو نحوه نصف العشر.

ما فروض الصوم وما سننه؟

النية قبل طلوع الفجر، والإمساك عن الطعام والشراب وكل مفطر من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وسننه تعجيل الفطر وتأخير السحور، وترك الكلام إلا في خير أو ذكر أو تلاوة القرآن.

ما صلاة العيدين؟

صلاة العيدين سنة، وهي ركعتان بلا أذان ولا إقامة، يُكبر في الركعة الأولى سبعاً وفي الثانية خمساً سوى تكبيرتي الإحرام في الأولى والقيام في الثانية.

وما صلاة كسوف الشمس وخسوف القمر؟

هذه الصلاة سنة، وهي ركعتان في كل ركعة ركوعان وقيامان وسجودان، ثم يجلس المصلّي ويتشهد ويسلم. وهي بغير أذان ولا إقامة.

وما صلاة الاستسقاء؟

ركعتان بغير أذان ولا إقامة، ثم يخطب الخطيب، ويدعو الله ويتضرع محوّلًا رداءه، بأن يجعل أعلاه أسفله.

وما صلاةُ الوتر؟

أقلها ركعة وأكثرها إحدى عشرة .

وما صلاة الضحى؟

أقلها ركعتان ، وأكثرها اثنتا عشرة .

وما الاعتكاف؟

المكث في المسجد ، وشرطه النية .

متى يجب الحج؟

يجب الحج على من استوفى البلوغ والعقل والإسلام والاستطاعة ، وهو واجب في العمر مرة واحدة .

ما فروض الحج؟

الإحرام ، والوقوف بعرفة ، والطواف ، والسمي ، والحلق أو التقصير .

ما فروض العمرة؟

الإحرام بالعمرة ، وطوافها وسعيها .

ما فروض الإحرام؟

التجرد من الخيط ، واجتناب الطيب ، وترك كل من حلق الرأس وتقليم الأظافر وقتل الصيد والزواج .

هناك أشياء أخرى واجبة في الحج ، فما هي؟

التلبية وطواف القدوم وطواف الوداع والمبيت بمزدلفة وبمنى
ورمى الجمار .
ما الجهاد ؟

الْقِتَالُ لإعلاء كلمة الله ، من غير ظلم ولا اعتداء ، ويشملُ الجهاد
بالنفس والمال ، ولا بدَّ من التحريض عليه ، لقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ
حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ » ، ومن مات فيه مات شهيداً ، وجزاؤه الجنة ،
قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ
وَالْقُرْآنِ ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به .
مَا فُرُوضُ الْبَيْعِ ؟

الإيجابُ والقبولُ ، وأن يكون المبيعُ مملوكاً للبائع قادراً على
تسليمه ، خالياً من الربا .
ما الشيء الذي لا يجوزُ بيعُ بعضه ببعض .

ما كان من صنفٍ واحدٍ لا يجوزُ بيعُ بعضه ببعض كالتمرٍ بالتمرٍ
والقمح بالقمح .

ما معنى الكلمات الآتية في اللغة : الوضوء ، الغسل ، الصوم ، الزكاة ،
الحج ، الجهاد ؟

الوضوء التنظف ، والغسل التطهير ، والصوم الإمساك ، والزكاة
الزيادة والتماء ، والحج القصد ، والجهاد الدفاع والقتال .

وبعد هذا أعلن هذا العالم في المجلس أن الجارية على علمٍ واسعٍ ، وأنها أجابت عن كل سؤالٍ إجابةً صادقةً سديدةً .

ثم قالت الجارية :

أُتسمِعُ أن أسألك عن أشياء كما سألتني ؟ فقال :

سَلِّي يا جاريةُ فإني مُجِيبُكَ بقدر ما يتسع له علمي وفهمي . فقالت :

مَا سَيَهَامُ الدِّينُ ؟

الشَّهَادَةُ ، وَالصَّلَاةُ ، وَالزَّكَاةُ ، وَالصَّوْمُ ، وَالْحَجُّ ، وَالْجِهَادُ ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَالْأُلْفَةُ ، وَطَلَبُ الْعِلْمِ .

مَا سِرُّ الْإِسْلَامِ ؟

صِحَّةُ الْعَقْدِ ، وَصَدَقُ الْقَصْدِ ، وَحِفْظُ الْحَدِّ ، وَالْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ ، فَقَالَتْ :

إِنْ لَمْ تَجِبْ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ الْآخِرِ أَخَذْتُ مِنْكَ جُبَّتَكَ إِيمَاءً إِلَى

عَجْزِكَ وَإِفْخَامِكَ ، فَقَالَ :

لَكَ مَا أَرَدْتَ فَهَاتِي سَوْأَكَ . فَقَالَتْ :

مَا فُرُوعُ الْإِسْلَامِ ؟ فَسَكَتَ وَلَمْ يَحْرِجْ جَوَابًا ، فَقَالَ الْخَلِيفَةُ :

أَذْكُرِيهَا وَأَنَا أُعْطِيكَ جُبَّتَهُ ، فَقَالَتْ :

التَّحَمُّسُ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَالِاقْتِدَاءُ بِرَسُولِهِ ، وَكَفُّ الْأَذَى ، وَأَكْلُ

الْحَلَالِ ، وَاجْتِنَابُ الْحَرَامِ ، وَرَدُّ الْمَظَالِمِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَالتَّوْبَةُ ، وَالتَّفَقُّهُ فِي

الدِّينِ ، وَمَحَبَّةُ الْخَلِيلِ ، وَتَصَدِيقُ الْمُرْسَلِينَ ، وَالتَّأَهُبُ لِلرَّحِيلِ ، وَقُوَّةُ

الْيَقِينِ ، وَالْعَفْوُ عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ ، وَالْقُوَّةُ عِنْدَ الضَّعْفِ ، وَالصَّبْرُ عِنْدَ الْمَصِيبَةِ ،

ومخالفة الشيطان ، ومجاهدة النفس ، والإخلاص لله تعالى في " والعلائية ، فأعطاهما جُبتَه ، وسكَّتَ مغلوبًا .

وتقدم عالم آخر وسألها :

ما آداب الأكل ؟

الاعتراف بأن الله تعالى هو الذى أطعم وسقى ورزق ، والشكر لله على ما أنعم ، والتسمية وغسل اليدين ؛ والأكل بثلاث أصابع ، والأكل مما يلي الأكل ، وأن يُصَغَّرَ اللقمة ، ويقلل من النظر إلى جليسه .

وما شكر الله تعالى ؟

هو صرف العبد جميع ما أنعم الله عليه فيما خلق لأجله .

ما الإيمان ؟

أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره .

أخبرني عن ثلاث تُذهب ثلاثًا .

الحسنات يذهبن السيئات ، والإسراف في المال يذهبه ، وسوء الخلق يذهب الوَقار والمحبة .

أخبرني عن شيء ونصف شيء ، ولا شيء .

الشيء هو المؤمن ، ونصف الشيء هو المنافق ، وغير الشيء هو المشرك .

ما أنواع القلوب ؟

القلوب منها السليم ، والسقيم ، والمُنِيب ، والنذير ، والمُنِير . ومنها ما هو معلقٌ بالدنيا ، وما هو معلقٌ بالآخرة ، وما هو عابرٌ بذكر الله تعالى ، فسكنت العالم بعد أن أبدى أعجابهُ بالجارية ، ثم قالت :

سأَسْأَلُكَ كصاحبِكَ فإن عجزتَ أخذتُ جُبتَكَ كما أخذتُ جُبتَهُ .

فقال : سلى ماشئتِ ، واللهُ ينصرنا . فقالتُ : ما الإيمانُ ؟

تصديقٌ بالقلب ، وإقرارٌ باللسان ، وعملٌ بالجوارح ، ومن كمال الإيمان التوكل على الله ، والتفويض إلى الله ، والرضا بقضاء الله ، وأن تكون أمور المرء لله ، وأن يحب ويكره ويمطى ويمتنع لله .

أخبرني عن فرض الفرض ، وفرض في ابتداء كل فرض ، وفرض يحتاج إليه فرض ، وفرض يستغرق فرضاً ، وسنة داخلية في الفرض ، وسنة يتم بها فرض ، فأفهم ولم يتكلم ، فأعطاهما الخليفةُ جبةً هذا العالم وأمرها أن تُجيب عن سؤالها هذا ، فقالت :

فرض الفرض معرفة الله تعالى ، والفرض في ابتداء كل فرض شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والفرض الذي يحتاج إليه فرض الوضوء ، والفرض الذي يستغرق فرضاً الغسل ، والسنة الداخلة في الفرض تحليل الأصابع واللحية الكثية ، والسنة التي يتم بها فرض الختان .

وتقدم القارئُ إليها ، فسأَلها :

كم في القرآن من أسماء الأنبياء ؟

الأنبياء الذين ذكرت في القرآن أسماءهم خمسة وعشرون ، وهم : آدمُ

ونوحٌ وإبراهيمُ وإسماعيلُ وإسحاقُ ويعقوبُ ويوسفُ واليشعُ ويونسُ
ولوطُ وصالحُ وهودُ وشعيبُ وداودُ وسليمانُ وذو الكفلُ وإدريسُ
وإلياسُ ويحيى وزكريَّا وأيوبُ وموسى وهارونُ وعيسى ومحمدُ صلواتُ
الله وسلامه عليهم أجمعين .

ما أسماء الطير التي ذكرت في القرآن ؟

البعوضُ والنحلُ والذبابُ والنملُ والمهدهدُ ، والغرابُ والجرادُ
والأبابيلُ وطير عيسى عليه السلام وهو الخفاشُ .

ما فضل « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » ؟

جاء في الأثر أن « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » ما قرئت على شيء
إلا بورك فيه .

هل أنزل القرآن جملة ؟

أنزل مُتَفَرِّقًا على حسبِ الوقائع والأحوال .

ما أول آية نزلت ؟

اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك
الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم .

من كان يكتبُ القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ؟

أبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبو عبيدة وعُثمان بن عفان رضي الله
عنهم . ولما سكت عن سؤالها قالت له : إن لم تجب عن سؤالي هذا أخذتُ
جُبَّتِكَ ، ثم قالت : اذكر آية فيها ثلاث عشرة كفاً ، وآية فيها ست عشرة ميمًا ،

وآيةٌ فيها مائة وأربعون عينًا ، فعجز عن الإجابة ، وأخذت جيبته ، وقالت :
 الآية التي فيها ثلاث عشرة كفاً هي آية الدّين في سورة البقرة ، والآية
 التي فيها ست عشر ميا ، هي قوله تعالى في سورة هود : يا نوح اهبط بسلام
 منا . . . والآية التي فيها مائة وأربعون عينًا قوله تعالى : واختار موسى
 قومه سبعين رجلاً لميقاتنا . . لأنّ لكل رجلٍ عينين .

ثم شهد لها القارئ بالفضل والمعرفة .

وتقدم الطيبُ فقال :

أخبرني عن خلق الإنسان وآدم .

خلق آدم من تراب ، وسمى آدم لأدمته أي شجرة لونه ، أو لأنه خلق
 من أديم الأرض ، وكان الإنسان نُطفة في قرار مكين ثم كان علقةً
 فضضة فعظماً ، ثم كسا الله العظم لحماً ثم سواه خلقاً آخر ، فتبارك الله
 أحسن الخالقين .

كم في رأس ابن آدم من بطن ؟

ثلاثة بطون مشتملة على خمس قوى تسمى الحواس الباطنية ، وهي :
 الحس المشترك والخيال والمتصرّفة والواهمة والحافظة .

أخبرني عن عظم الإنسان .

رأسٌ وجذعٌ وأطرافٌ ، ويشمل الرأس الجمجمة والوجه ، ويشمل
 الجذع العمود الفقري والصدر والحوض ، وأما الأطراف فهي اليدين
 والرجلان .

ما عروق الجسم ؟

كثيرة لا يعلم عددها إلا الله ، وأصلها الوتين . وقد جُعِلَت الرحمة في الكبد ، والضحك في الطحال ، والمكر في الكُلَيْتَيْنِ ، وجُعِلَت الرئتان مروحة ، والمعدة خزانة ، والقلب عماد الجسم إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله .

ما علامات المرض الظاهرة في الجسم ؟

الحرارةُ وتعرّف باللمس ، وصفرة العينين علامة اليرقان ، ونحولُ الظهر دلالة على ذات الرئة .

ما سبب وجع الرأس ؟

إدخال الطعام على الطعام ، ومن أراد السلامة فليجعل من بطنه ثلثًا لإطعامه ، وثلثًا لشربه ، وثلثًا لنفسه .

ما علامة الصفراء ؟

صفرة اللون ، ومرارة الفم والجفاف ، وضعف الشهوة ، وسرعة النبض ، وتسبب الحمى المحرقة وقُرحة الأمعاء .

ما علامة السوداء ؟

الشهوة الكاذبة ، وكثرة الهموم والهستريا .

متى يشرب الإنسان هنيئًا ؟

إذا شرب بعد الأكل بساعة ، وأن يَمُصَّ مَصًّا ولا يَعْْبَّ عَبًّا .

ما الطعام الذي لا يورث مرضًا ؟

كلُّ طعام يؤكل بعد الجوع ، ولا يئلاً المرء منه . بطنه ؛ فإن المعدة
بيت الداء والحمة رأس الدواء .

وما رأيك في الحمام ؟

لا ينبغي أن يدخله شبعان .

وما رأيك في الفاكهة ؟

تؤكل في إقبالها وتترك متى انقضى وقتها .

وما رأيك في الخمر ؟

قال تعالى : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل

الشیطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

وما رأيك في الحمامة ؟

هي لمن امتلاً جسمه دماً .

ما الشيء الذي إذا غرق عاش ، وإن تنفس الهواء مات ؟

السماك ، فإن حياته في أن يُحبس في الماء فإذا خرج منه إلى

الهواء مات .

أعرفين شجاعاً يبيض ؟

الضبان .

ثم سكت الطيب فقالت : سأأق عليك سؤالاً واحداً ، فإن لم تجب

عنه أخذت ثيابك ، فقال : أرجو أن أوفق إلى الصواب . فقالت :

أخبرني عن شيء مستدير ، ضئيل القدر والقيمة ، مقيد وهو غير

آبق ولا سارق ، مطعون لا فى قتال ، مجروح لا فى نضال ، مسكنه
الأطراف فى مساكن الأشراف ، فسكت الطيب ولم يحب ، فأعطاهما
ثيابه وقالت : إنه الزرّ والعروة .

وتقدم المنجم إليها وسأل : أخبرينى عن الشمس وطلوعها ؟
تطلع الشمس من منازل فى المشرق ، وتغرب فى منازل فى المغرب ،
قال تعالى : « فلا أقسم بربّ المشارق والمغارب » ، وقال تعالى : « هو
الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين
والحساب » .

أخبرينى عن الكواكب السبعة وعن البروج .
أما الكواكب فهى عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل ،
ونبتون وأورانوس ، وأما البروج فهى : السرطان والحمل والثور والجوزاء
والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت .
ثم أراد المنجم أن يعجزها ويفحمها فسألها :

يا جارية ، هل ينزل هذا الشهر مطر ؟ فأطرقت ساكتة حتى ظنّ
أنها عجزت ، ثم قالت : لقد أبان هذا السائل عن جهله ، ولو حفظ القرآن
ما سألتنى هذا السؤال ، ولعرف أن خمسة لا يعلمها إلا الله تعالى ؛ ثم قرأت
قوله تعالى : « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام
وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت
إن الله عليمٌ خبيرٌ » .

ثم أطرق المنجم ساكتاً ، فقالت له : ما أقسام النجوم ؟ فلم يجب ،
فأخذت ثيابه .

وتقدم الفيلسوف فسأل :

ما الدهر ؟

ساعات الليل والنهار ، وهى مقاديرُ جَرَى الشمس والقمر في
أفلاكها ، قال تعالى : « والشمسُ تجري لمستقرٍ لها ذلك تقديرُ
العزیز المليم » . « لا الشمس ينبغي لها أن تُدرك القمر ولا الليلُ
سابقُ النهار وكلُّ في فلك يسبحون » . ويطلقُ الدهرُ على الله ولهذا
قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تَسُبُّوا الدهر فإن الدهرَ هو الله » .
أخبرني عن خمسة أكلوا وشربوا وما وُلِدُوا ولا خرجوا من
ظهر ولا بطن .

فأجابته :

آدم وشمعون وناقة صالح وكبش إسماعيل والطير الذي رآه أبو بكر
في النار .

أخبرني عن أربع في الجنة لا من الجن ولا من الإنس ولا من
الملائكة .

فأجابته :

ذئب يعقوب ، وكلب أصحاب الكهف ، وناقة صالح ، وحمار العزيز .
أتعرفين رجلاً صلى لا في الأرض ولا في السماء ؟

سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ صَلَّى عَلَى بَسَاطِهِ وَالرِّيحُ تَحْمِلُهُ .
أَخْبَرَنِي عَنْ رَجُلٍ حَرَمَتْ عَلَيْهِ أُمَّةٌ فِي الصَّبِيحِ ثُمَّ حَلَّتْ لَهُ فِي الظَّهْرِ
ثُمَّ حَرَمَتْ عَلَيْهِ فِي الْعَصْرِ ثُمَّ حَلَّتْ لَهُ فِي الْمَغْرِبِ ثُمَّ حَرَمَتْ عَلَيْهِ فِي الْعِشَاءِ
ثُمَّ حَلَّتْ لَهُ فِي الصَّبَاحِ .

رَجُلٌ رَأَى أُمَّةً غَيْرَهُ فِي الصَّبِيحِ فَهِيَ حَرَامٌ عَلَيْهِ ، ثُمَّ اشْتَرَاهَا فِي
الظَّهْرِ فَحَلَّتْ لَهُ ، ثُمَّ أَعْتَقَهَا فِي الْعَصْرِ فَحَرَمَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ تَزَوَّجَهَا فِي الْمَغْرِبِ
فَحَلَّتْ لَهُ ، ثُمَّ طَلَّقَهَا فِي الْعِشَاءِ فَحَرَمَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ رَاجَعَهَا فِي الصَّبَاحِ
فَحَلَّتْ لَهُ .

هَلْ تَعْرِفِينَ قَبْرَ أَثْنَى بِصَاحِبِهِ ؟
حُوتُ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ ابْتَلَعَهُ .
مَا الْبَقْعَةُ الَّتِي طَلَعَتْ عَلَيْهَا الشَّمْسُ مَرَّةً وَاحِدَةً وَلَا تَطْلُعُ عَلَيْهَا مَرَّةً
أُخْرَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؟

قَاعُ الْبَحْرِ الَّذِي ضَرَبَهُ مُوسَى بِعَصَاهُ فَانْفَلَقَ .
هَلْ تَعْرِفِينَ شَيْئًا يَتَنَفَسُ بِلَا رُوحٍ ؟
قَالَ تَعَالَى : « وَالصَّبِيحُ إِذَا تَنَفَسَ » .

كَمْ عِدَدُ حَمَامٍ طَائِرٍ ، حَطَّ بَعْضُهُ فَوْقَ شَجَرَةٍ ، وَحَطَّ بَعْضُهُ الْآخَرُ
عَلَى الْأَرْضِ تَحْتَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ، فَقَالَتْ حَمَامَةٌ مِنَ اللَّائِي حَطَّطْنَ فَوْقَ
الشَّجَرَةِ لِلْحَمَامِ الَّذِي حَطَّ عَلَى الْأَرْضِ تَحْتَهَا : إِنْ طَاعَتِ وَاحِدَةٌ مِنْكُنَّ
إِلَيْنَا فَوْقَ الشَّجَرَةِ كَانِ عِدَدُنَا ضَعْفَ عِدَدِكُنَّ ، وَإِنْ نَزَلَتْ حَمَامَةٌ مِنَّا

إلى الأرض كان عددنا يساوى عددكن ؟
 الحمام كله اثنتا عشرة حمامة ، حطاً فوق الشجرة سبع ، وحطاً
 على الأرض خمس .
 فأطرق الفيلسوف ثم قال : هذه ثيابي نخذيها ولا داعي لأن
 تسأليني .

وتقدم عالم آخر فسألها :
 ما أولك ؟ وما آخرك ؟
 أولى التراب وأخرى التراب .
 ما شيء أوله عدم وآخره روح ؟
 عصا موسى عليه السلام حين ألقاها فإذا هي حيّة تسعى بإذن الله
 تعالى وقدرته .

أخبريني عن أنثى من ذكر وذكر من أنثى .
 فقالت : حواء من آدم ، وعيسى من مريم .
 أخبريني عن نار تأكل ولا تشرب ، ونار تأكل وتشرب ، ونار
 تشرب ولا تأكل ، ونار لا تشرب ولا تأكل .
 نار الدنيا تأكل ولا تشرب ، ونار الشمس تشرب ولا تأكل ،
 ونار جهنم تأكل وتشرب ، والقمر لا يأكل ولا يشرب .
 ما الشيء الذى يعيش صامتاً متكلاً ؟
 القلم .



ما شيء له لحمٌ وليس له دمٌ ولا ريش ، يؤكل مطبوخاً ومشوياً ، له
لوان أحدهما كالفضة والثاني كالذهب ؟
البيضة .

أخبرني عن آكلةٍ من غير فم ولا يطن ، إن أنت أطعمتها اتعشت
ونمت ، وإن أنت سقيتها ماتت .
إنها النار .

خيلان محرومان من اللذة ، يحفظان الناس من كل آفة ، يبيتان
متعاقبين ، وعند طلوع الصبح يفترقان ، فما هما ؟
إنهما مصراعا الباب .

ذات ذوائب تجرُّها من خلفها ذاهبةً جائئة ، لم تذق عينها طعم النوم ،
ولم تذرف دمعاً في حياتها ، عارية وتكسو الناس فما هي ؟
إنها الخياط « الإبرة » .

ما الشيء الذي له لذةٌ أحلى من الشهد ؟
الابن الناجب البار بوالديه .

ما شيء أقطع من السيف ؟
اللسان .

ما شيء أسرع من السم ؟
عين الحسود .

ما الحق الذي لا يشكره صاحب الباطل ؟



الموت .

ما الذى يجعل المرء فى عذابٍ كعذاب القبر ؟

الابن الفاسد .

ما موت الحياة ؟

الجهل .

ما الداء الذى أعيا صاحبه ؟

سوء الخلق .

فسكت ثم أعطاها ثيابه .

فأعجب الخليفة بها وقال : أتعرفين لعبة الشطرنج ؟

فقالت : حيا الله أمير المؤمنين ، نعم ، أعرفها وأجيدها ؛ فأحضر لها الشطرنج وتقدم إليها أحد الماهرين فيه فغلبته مرتين ، وفى الثالثة قالت له :

سألعب معك هذه المرة من غير « فرس » وزير ورُخَّ أيمن وفرس أيسر ، فلعب معها وهو على يقين أنه غالبها ، ولكنها أبطلت يقينه وغلبته .

ثم أحضر الخليفة آلات الطرب فأسمعته ما أثلج صدره وأنعشه ، فقال لها :

بورك فيك ، ورحم من علمك ورباك ، وأعطى سيدها مائة ألف دينار ، والتفت إليها قائلاً :

اطلبي مني ما تشائين .

فقلت : أرجو أن تردّني إلى سيدي أبي الحسن .

فزاد ذلك في إعجابه بها ، وردّها إليه ومنحها خمسة آلاف دينار ،
وجعل سيدها نديمه ، وأجرى عليه كل شهر ألف دينار .
وعاشت مع سيدها في أرغد عيش وأمنته ، وعرف لها سيدها
وفاءها له ، وحرصها عليه ، كما شكرَ للخليفة سابع نعمته وجزيل
عطائه .

١٩٩١ / ٣٤٤٩	رقم الإيداع
ISBN 977-02-3241-6	الترقيم الدولي

١ / ٩٠ / ١٨١

طبع بمطابع دار المعارف (ج-م-ع-)

الف ليلة وليلة

هذه طبعة جديدة من هذه المجموعة التي تنتمي إلى التراث الشعبي.. والتي نالت إهتماماً عالمياً في الشرق والغرب.. وترجمت إلى كل لغات العالم..

وتمتاز هذه الطبعة بحسن الصياغة التي تناسب عقول الشباب والناشئة.. وتخلو من الشوائب التي توجد في طبعات كثيرة..

إنها واحدة من عيون التراث الذي تحرص دار المعارف على تقديمه إلى القارئ العزيز..

مصدر منها:

- | | |
|------------------------|-----------------------------------|
| ١ - شهر زاد و دنیا زاد | ٧ - عبدالله البری وعبدالله البحرى |
| ٢ - السندباد البحرى | ٨ - أبو الحسن وجاریته تودد |
| ٣ - قمر الزمان | ٩ - الحصان المسحور |
| ٤ - الصياد والعفريت | ١٠ - على بن بكار وشمس النهار |
| ٥ - معروف الإسكافى | ١١ - على الزئبق ودليلة المحتالة |
| ٦ - الأحذب والخياط | ١٢ - علاء الدين والمصباح العجيب |
| | ١٣ - على بابا |



دارالمعارف

قشر حنیف
٢,٥٠